الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٩ — ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 169

Lundi - 28 - 9 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العــــدد ١٦٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ رجب سنة ١٣٥٥ — ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

المُعْجَم السياسى

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

وحدثنى صاحبُ سر (م) باشا قال: كنا فى سنة ١٩٢٠ وهى بنت سنة ١٩١٩ (١)؛ وقد اجتمعت الأمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تكلِّمها فجعلت السكوت ثورة. وأعلن الشعبُ أن كلمتَه فى لسان الوفد ينطق الوفد بها نطق النبي بما يُوحَى اليه، فما يكونُ لأحدٍ غيرِه أن يقولهَا ولا أن يقول أُوحى إلىّ. وأبى اللورد ملنر أن يصدّق أن للمصريين إجماعاً يُعتَدُّ به، وأنهم دخلوا فى السياسة دخولاً ثابتاً فرَسَخُوا فيها، وأنهم أصبحوا مع الانجليز كالانجليز الذين يقولون عن أنفسهم فى مثَلهم السائر: ينبغى أن نكونَ أحراراً مثلَ أعمالنا

وزعم اللورد لنفسه أن هذه الأحزابَ المصرية لا يتفق منها اثنان أبداً إلا كان بينهما ثالثٌ يختلفان عليه وهو الطمعُ فى مناصب الحكم، واستخرج من ذلك أن المصرىَّ والمصرىَّ كشِقَّى المِقراض لا يتحركان فى عمل إلا على تمزيق شىء بينهما؛ فان لم يكن بينهما (الشىء) لم يكن منهما شىء.

(١) سنة الثورة المصرية وقد مر وصفها فى مقالة (الأخلاق المحاربة)

فهرس العـــدد

وذهب الرجلُ يتَظنّى ويحدس على ما يُخيِّلُ له الظن ، وقد حسب أن انجلترا يحقُّ لها أن تقولَ في المصريين ما يقولُ الله في خلقه كما ورد في الأثر: إنما يتقلبون في قبضتي ؛ وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب : « إن يَشَأ يُذْهِبْكم ويأتِ بخلْقٍ جديد » . . . . وكان اللورد هذا رجلاً ممارساً لمشاكل السياسة ، دَخالاً فيها ، داهيةً من دُهاة القوم ، له في قلبه عينان وأذنان غير ما في وجهه كحُذّاقِ السياسيين ؛ وهو يعرف أن سياسةَ قومه لا تدخل في شيء إلا دخولَ الابرة بخيطها في الثوب ، إن خرجت هي ترَكت الخيطَ وقد جَمَعَ وشد . . . .

فأراد أن يمتحنَ مذهبَ المصريين في اجماعهم على الاستقلال ، وقدَّر أنه واجدٌ من الفلاحين عوناً ومادةً لمكرِه السياسي ، وحسب الوفدَ صورةً جديدةً من طبقة (الباشاوات) القديمة ، ينزلون من الشعب منزلة اليد التي تُمسكُ القيدَ من الرِّجْلِ التي فيها القيد ، ويضمون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة ، ويقولون الوطن وهم يريدون الجاه ، ويقيمون الشعبَ كالسُّلم ينتصبُ قائماً بأيديهم ليحملَ أرجلَهم الصاعدةَ عليه

فجاء اللورد إلى مصر ، فوجد الأمة كلها قد حَذِرَت منه وتيقظت له ، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجدَ في مصر هِرَّةً تفاوضه ؛ ولكنه كان مستيقناً أن أُذُنَ السياسة الانكليزية (كالرديو) لصوتين : صوتِ الدنانير وصوتِ الجماهير ، فمرَّ في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام ، وانْصَفَقَ عنه الناسُ وأهملوه ، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول ، فبدأ وظلَّ يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ ... وساح في البلاد سياحةً طويلة وكأنه لم يسافر إلا من شَفَةِ (أبو الهول) السُّفلى إلى شفته العُليا

* * *

قال صاحب السر : وجاء اللورد لمقابلة الباشا ، فمرَّ عليَّ مرورَ كتابٍ مقفَلٍ لا أعرفُ منه إلا العنوان ؛ غير أنه رجلٌ بمقدار الرجلِ الذي يخالف أمةً كاملة تكاد تحسبه مطويًّا على زوبعة ، وترى له قوتين تُحِسُّ من أثرها الرهبةَ والاعجاب ، وإذا تأملته قلتَ إن اللطف والظَّرف أضعفُ شمائله ، وإن الدَّهاءَ والحيلة أقوى مواهبه

فلما لقيتُ الباشا من الغد سألني كيف رأيت اللورد ملنر ؟ فقلت : والله يا باشا إنه كالضرورة ما يتمناها أحدٌ ولكنها تجيء

فضحك الباشا وقال : يا ليت لنا نحن الشرقيين ضرورةً تصنع ما صنع اللورد ؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية ، وهي أن الشعبَ الذي يُصِرُّ ولا يزال يُصِرُّ ، يجعل الاغراءَ لا يُغري والخوفَ لا يُخيف

ويا ليتَ الأممَ الشرقية تتعلم هذا الصمتَ السياسيَّ عن محاورة الكامة الاستعمارية أحياناً ، فان صمْتَ الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرةَ الأمة هي المتكلمةُ كلاماً بهذا الصمت ، تُعلن للعالم أن الواجبَ الشعبيَّ قد وضع قُفْلَه على كل فم

ولقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي فأدرك منه أن في الشعب أنَفَةً وحميَّةً وقوة ، وأن حساب الضمير الوطني أصبح لهذه الأفئدة كالحساب الالهي للنفوس المؤمنة ، كلاهما مُستعلِنٌ يُخافُ ويُتَّقى ، وكلاهما له كلمة محرَّمة

أيةُ معجزة هذه التي جعلت كلمةَ الأجنبيِّ تتخذُ في أذهان أمة كاملة شكلَ قائلها ، فاجتمعت لها الجلودُ على معنى الرفض ، وأصبح كلُّ فرد يعرف محلَّه من الكل ، وخضعت الطبائع بجملتها لقانون العزة القومية الذي يُلزمها ألا تخضع للأجنبي ؟

إن الأمم بعضُ مسائل نفسية كهذه المسئلة ؛ فلو أن لنا خمسة دروس سياسية مختلفة كدرس (ملنر) لكانت لنا في الايمان الوطني كالصلوات الخمس

والآن تعلمت الأمةُ أن الشعبَ العزيز هو الذي ينظر في فض مشاكله إلى الحلِّ وإلى طريقة الحلِّ أيضاً ، وقد كان (ملنر) هو أول أساتذتنا في تعليمنا الطريقة

وهذا الدرس يجب أن يكون درساً للشرق كله ، فان السياسة الاستعماريةَ قائمةٌ فيه على خداع الطريقة في حل مشاكله ، فيحلونها ويعقدونها في نصٍّ واحد ؛ ويُثبت الكلام الذي يتفقون عليه أن المرادَ منه زوالُ الخلاف ، ويثبت العملُ بعد ذلك أن المراد كان زوالَ المقاومة

وفي السياسة الأوربية موافقات دميمة كالنساء المشوَّهات ، فاذا عرضوا واحدةً منها على من يريدون أن يزوِّجوه . . . . فأباها وفتح لها عينيه بكل ما فيهما من قوة الأبصار ، أعفوه منها وقالوا له سنأتيك بالجميلة . ثم يذهبون بها الى معهد التجميل اللغوي فيصقلونها ويصبغونها ويضعون لها أحمرَ السياسة وأبيضها ثم يعرضونها جديدة على صاحبهم ذاك ، وما صنعوا ما به صارت الدميمة غيرَ دميمة ، ولكن ما به رجع غيرُ الأعمى كالأعمى

ولهم عقول عجيبة فى اختراع الألفاظ حتى لتكون شدة الوضوح فى عبارة هى بعينها الطريقة لاخفاء الغموض فى عبارة أخرى . وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ منتفخةٍ تحسَب جَزْلةً بادنةً قد ملأها معناها وهى فى السياسة ألفاظ ُ حَبَالى تستكمل ُ حملها مدة ثم تلد

ولهم من بعض الكلمات السياسية كما لهم من بعض الرجال السياسيين ، فيكون الرجل ُ من دُهاتهم رجلاً كالناس وهو عندهم مِسْمَارٌ دقُّوه فى أرض كذا أو مملكة كذا ، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة وهو مسمار ٌ دقُّوه فى وثيقة أو معاهدة

ثم ضحك الباشا وقال : إن أرضنا تُخرج القطن وسياستنا تخرج ألفاظاً كالقطن لا توضع فى المِغزَل إلا مدت وتحولت(١) . وإذا ذهبنا نخالفهم فى التأويل والتفسير لم نجد عندنا المعجم السياسى الذى يُملى النص . أتدرى يا بنى ما هو المعجم السياسى ؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهُراء ، ولكنه ذلك المعجم الحى ، ذلك المعجم الذى يتألف من مليون جندى . . . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(١) لا ينس القارئ أن هذا كان فى سنة ١٩٢٠

وجع القلب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وجدت بالتجربة أنى لا أستطيع أن أحب كما تريد المرأة من الرجل — ولست أعنى أنى عاجز عن الحب ، فما أعرف لى فى هذه الدنيا عملاً غير ذلك . فأنا أحب الطعام الجيد والشراب اللذيذ والنوم الهنىء والراحة التامة ؛ وأحب الكتب والصديق الموافق الذى لا ينغِّص الحياة على صاحبه بطول المخالفة وكثرة المكابرة ودوام الشذوذ ؛ وأحب أشياء كثيرة لا أستطيع أن أحصيها . ولكنى أحب نفسى وهذا هو البلاء الأكبر . وليس هو ببلاء ، إذا أردت الحق ، ولكن المرأة تراه كذلك . وعندها أنك تبيع نفسك حين تحبها . ولا بأس بأن يبيع المرء نفسه أحياناً ، ولكن بيعها لا يستلزم أن تترك حبها وتكف عنه . وهل يعقل أن تفيض حبك على الناس والأشياء ولا تختص نفسك ببعض هذا « الفيضان ؟ » غير أن غير المعقول عندك هو المعقول عندها والذى لا يجوز خلافه ولا صبر لها على سواه ، فهى من أجل ذلك تسود عيشك وتريك النجوم فى الظهر الأحمر . على أن الرجل يستطيع أن يخفى حبه لنفسه أو يموهه ويستره بما يحجبه ، ولا أظن أن فى هذا عسراً فأنه يفعل هذا كل ساعة ولا يزال يعزو أعماله إلى بواعث أخرى يظنها أشرف وأسمى من حب النفس ، فهو مثلاً يأكل لا لأنه يشتهى الطعام بل لأن من واجبه أن يحرص على أن يظل قوياً قادراً على خدمة النوع الانسانى ، وعلى هذا فقس ! غير أن هناك ما لا سبيل إلى ستره وكتمانه أو تمويهه ، إذ من الواضح مثلاً أن من العبث أن تنظر إلى اليمين وأن تروح تزعم أنك إنما كنت تنظر إلى الشمال ، فان اتجاه العين لا يخفى ولفتة الوجه لا مغالطة فيها . فاذا كانت النظرة إلى امرأة وأنت مع أخرى فالويل لك ولست ُ مسئولاً عنك .... قالت لى مرة إحداهن وأنا معها وقد رأت عينى تدور : « بص هنا » وجذبتنى من ذراعى ، فقلت وأنا مستغرب : « ولماذا لا أبص هناك ؟ » قالت : « كده » بهذا الايجاز الذى لا يفيد شيئاً ؛ فقلت : « كده يعنى ماذا ؟ » قالت : « كده » ولم تزد . فضاق صدرى فقد عجزت أن أفهم سر هذا الأمر المتعب أو حكمته وقلت : « ياستى .. إن الله قد خلق عينى متحركة غير ثابتة فكيف ألزمها الثبات ؟ ثم هبينى استطعت ذلك فلماذا أتكلفه ؟ »

فقالت : « عيب ! »

فصحت « عيب ؟؟ ياخبر اسود !! »

فقالت : « لا يليق أن تنظر إلى الفتيات فى الطريق »

ففهمت ولكنى لم أقتنع وقلت : « إن لى على هذا رداً طويلاً فهل تسمحين بأن تسمعيه ؟ »

قالت بتهكم : « نعم يا سيدى ... »

فتجاوزت عن لهجة السخرية إذ حسبى موضوع واحد للخلاف وقلت : « أولا — لماذا تظهر الفتيات لنا معاشر الرجال فى الطريق إذا كن لا يردن أن ينظر اليهن أحد ؟ ثانياً — وهذا أهم — لماذا يظهرن فى حفل من الزينة إذا كان لا يرضيهن أن يدير الرجال فيهن عيونهم ؟ ثالثاً — وهذا هو الأهم — بأى وجه ألقى الله يوم القيامة إذا كنت أغمض عينى وأتكلف العمى ولا

أنظر إلى مخلوقاته التى أبدعها ؟؟ وقد خلق لى عينين فلا عذر لى ، ورزقنى غير ذلك وسائل القدرة على إدراك معانى الجمال فى خلقه سبحانه .. أليس من الواضح أن مما يخجلنى يوم القيامة أنه تعالى خلقنى بصيراً فآثرت العمى ، وحساً مدركا ففضلت الجهل والبلادة ؟؟ وأخيراً — لا آخرا — ما الضرر على كل حال من النظر إلى الناس ؟؟ ماذا خسرت الفتاة التى نظرت اليها ؟ .. هل أنا أكلتها بعينى ؟! هل نقصت شيئاً ؟؟ إنى أراها على العكس قد زادت ... نعم زادت ... لماذا تنظرين إلى هكذا ؟؟ هل نطقت كفراً ؟؟ أقول لك زادت لأنها استفادت إحساساً جديداً مؤيداً لاحساسها بجمالها ، ولو كنت لم أنظر إليها لكانت خليقة أن يساورها الشك فيما تحس من نفسها أو تعتقد ، فأنا قد افدتها راحة البال واطمئنان الخاطر ، وإنى لجدير بالشكر على هذا لا اللوم »

فصاحت بى بعد طول الصمت : « طيب اسكت بقى »

فقلت وأنا ضجر : « هكذا أنتن يا نساء ! ! إذا أعوزتكن الحجة قلتن : طيب اسكت بقى .. ولكنى لا أنوى أن أسكت « بقى » فقد مرن لسانى على الدوران وأنا أحس اليوم أنى أوشك أن أقول كلاماً بديعاً »

فصاحت بى : « أنا معك فكيف تنظر إلى غيرى ؟ »

فقلت : — وقد فهمت — « آه .... هذه هى المسألة ... قولى هذا من الصبح يا ستى ... نعم أنت معى ... وإنك لحسبى من عالم الجمال والفتنة ، ولو وسعنى غير هذا لما كنت حسبى ... ولكنى قانع غير متذمر ... غير أنك مع الأسف لست كل النساء .. وأنت تغنين عن جنسك أحياناً ولكنك لا تستطيعين أن تغنى عن هذا الجنس فى كل حين ؛ وليس ذنبى أنك قاصرة . »

فقاطعتنى صائحة : « قاصرة ؟؟ أشكرك »

قلت : « نعم قاصرة عن اختزال جنسك كله فى شخصك الواحد »

فأبت أن تسمع منى بعد ذلك فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله .. الأمر لله ... سكتنا يا ستى .. فلعلك تكونين مسرورة »

ولكنها لم تكن مسرورة ولم تغفرها لى قط ... وأنا أقول تغفرها بغير تعيين أو تبيين لأنى والله لا أدرى إلى هذه الساعة أى شىء أغضبها وأثار نقمتها على

وحدث مرة أخرى أن كلفتنى أن أشترى لها فاكهة وكنت أعرفها تحب الجوافة حباً جماً فانتقيت حبات طيبة الرائحة ذكية العبق واشتريت لها فاكهة أخرى ، ولكن الجوافة كانت هى المهمة والتى عليها الكلام ؛ وذهبت بحملى اليها ، ودخلت به حجرة الانتظار ، وقلت لخادمتها : « قولى لسيدتك صباح الخير يانور العين . لقد حضر سيدك ، ونور عينك اليمنى — واليسرى أيضاً فى الحقيقة — ومعه حمل بعير من الجوافة بل من أبدع أنواعها »

فذهبت الخادمة وأبلغتها الرسالة فأطلت تلك من باب غرفتها — بوجهها فقط — وصاحت وهى فرحة — صحيح ؟؟ جوافة ؟؟ حلوة !؟ »

ففتحت الكيس وأخرجت واحدة ورفعتها لها بين أصابعى وأدرتها أمام عينها فابتسمت ابتسامة السرور وقالت : « حالاً . حالاً ... دقيقة واحدة » ودخلت

وبقيت أنا أتمشى فى الحجرة ، ولم يكن فيها ما يسلى المرء ، ولم يكن معى كتاب أقرأه وأزجى به الفراغ فجعلت أقوم وأقعد ، وأنظر تارة فى المرآة ، وأمسح الطربوش تارة أخرى ، وأنفض عنه ما علق به من التراب . . ومسحت الحذاء أيضاً . . مسحته مرتين حتى صار جلده كالمرآة ، وحتى حدثتنى نفسى أن أخلعه أنظر إلى وجهى فيه ، ولكنى خفت أن تدخل على وأنا أفعل ذلك . . وتأملت الحرير الذى كسيت به الكراسى ، ورفعت طرف السجادة وجسستها وفركت وبرها بأصابعى ، ثم لم أجد شيئاً آخر أصنعه فى هذه الغرفة ، فانحططت على كرسى كبير وثير واضطجعت وفى مأمولى إذا نمت ألا توقظنى حين تدخل . ولكنى لم أنم لأن رائحة الجوافة الذكية كانت قوية ، فقد نسيت الكيس الذى هى فيه مفتوحاً ، فتسور إلى أنفى أريجها وملأ صدرى وأدار رأسى ، فأحسست بالجوع ولكنى ضبطت نفسى وشددت على اللجام وقلت : « ألهم اخزك يا شيطان ! » غير أن الشيطان شديد الغواية قوى الفتنة فجعل يقول لى : « وما حبة واحدة تأكلها فتنعم بها هذه الثعالب التى تمزق أحشاءك ؟ » فقلت : « والله لقد صدق اللعين .. فلآكل حبة واحدة من الجوافة اللذيذة .. ثم إن هذا عدل . . أفأحملها وأحرمها ؟ ؟ وأكون كالعير التى يقولون إنها

يقتلها الظمأ وهى تحمل الماء على ظهورها فى القرب ؟ أو كالحمار الذى يحمل أسفاراً ؟ ؟ . »

ومددت يدى إلى الكيس وأنا يقظان كنائم ، وتناولت منه من غير أن أنظر إليه : وطابت الجوافة فى فمى ، فأقبلت عليها آكل وآكل — ولكن بغير احتفال والله — وإذا بصاحبتنا تدخل مؤهّلة مرحّبة باسطة يديها للسلام ، ثم إذا بها تقف فى وسط الغرفة الفسيحة وعينها مفتوحة جداً علىّ ، فلم أستغرب ، فقد كان فمى محشوا وأسنانى تعمل دائبة كالليل والنهار . وتنبهت إلى واجبى حين رأيتها تحملق على هذا النحو ، فبلعت ما بقى فى فمى بسرعة ، ومططت عنقى ليسهل الانزلاق — أعنى البلع — وانحنيت على الكيس لأتناوله وأقدمه إليها وأمرها به — أعنى بالجوافة التى فيه — وإذا به ينطبق بين يدى لأنه فارغ ! !

الحق أقول إنى بهت ، فما كان يخطر لى فى بال أن آكل كل هذه الجوافة . ولو أن إنساناً راهننى أن أفعل لفزعت وأشفقت على نفسى ، ولكن هذا الذى لم أكن أحسب أن لى قدرة عليه وقع اتفاقاً . . وقد سرنى هذا فى الحقيقة لأنه كان من بواعث الاطمئنان لى على صحتى ، وكان جديراً بها أن تهنئنى وتفرح لى ، فان الجوافة كثيرة وهى فى السوق أكوام عظيمة ، والجيد الطيب ليس بالقليل ، وثمنه شىء تافه لا يستحق الذكر ... ولكنها وجمت يا أخى لا أدرى لماذا ؟ ووقفت جامدة لا تتحرك كأنما سمرت إلى الأرض ، فأزعجنى ذلك وخفت أن يكون قد أصابها شىء لا قدر الله ، وأقبلت عليها أسألها عما جرى لها ؛ فلما أفاقت أشارت بيدها — دون أن تتكلم — أن اذهب . . اذهب ولا ترنى وجهك !

فاستغربت أن تلقانى بهذه الجفوة بعد ذاك الترحيب والتأهيل والبشر الذى كان يفيض به وجهها وهى مطلة به من بين مصراعى الباب ، وتمنيت لو أنها تبقى أبداً ووجهها بين المصراعين ليبقى لى بشرها وحلاوة ابتسامها ! !

الحق أنى لا أفهم النساء .... وهل تستطيع أنت أن تفهم كيف يفسد الحال وتقع النبوة بين رجل وامرأة من أجل أقة من الجوافة ثمنها قرش ونصف قرش ؟ إن كنت تفهم هذا فانى أحسدك وأدعو لك بالتوفيق إن شاء الله

ابراهيم عبد القادر المازنى

صور سياحة

١ – فرنسا وباريس

بقلم سائح متجول

تأثرت مصر بالثقافة الفرنسية طوال القرن الماضى ؛ ولم يكن ذلك لأن مصر أمة من أمم البحر الأبيض تميل بخواصها وموقعها إلى الأخذ بالثقافة اللاتينية ، ولكن لأن ظروفا خاصة اجتمعت منذ الغزوة البونابارتية لتحمل مصر فيما بعد على الاستعانة بالفرنسيين فى مشروعات الاصلاح والتجديد وإرسال بعوثها العلمية الأولى إلى فرنسا . هذا هو الأصل فى تأثر مصر بالثقافة الفرنسية ، وهو عارض تاريخى محض ، لا دخل فيه للعوامل الجغرافية أو الميول والخواص الجنسية ؛ ومن ثم فانا نرى أثر الثقافة الفرنسية فى مصر يضمحل اليوم ، لأن مصر تختار اليوم لنفسها من مختلف الثقافات ، لتبنى ثقافتها القومية ، ولا تقف عند ثقافة دون أخرى

ومع ذلك فما تزال الثقافة والآداب الفرنسية تحظى منا بأكبر عناية ؛ وما تزال فرنسا تجذب منا أكبر عدد من الزائرين ؛ وما تزال اسم باريس يثير فى نفوسنا سحرا لا يقاوم ؛ بل إن كثيراً من أولئك الذين لم يروا باريس يعرفونها معرفة عقلية وروحية شاملة : يعرفونها من الكتب والصحف والسينما ، وتربطهم بها روابط فكرية قوية ؛ وما تزال أول أمنية للسائح المبتدى أن يرى باريس

وقد حظيت باريس من العربية بكتب ورسائل عديدة ، وحظيت فى العهد الأخير بكتابين لاثنين من كتابنا المعروفين ، وصفت فيهما معاهدها ومغانيها وجوانب كثيرة من حياتها الاجتماعية ، وانك لتقرأ فى الكتابين فصولاً وشذوراً تفيض اعجاباً بفرنسا وباريس وكل ما هو فرنسى ، بل إنك لتشعر من خلال تلك الفصول الحارة المنمقة أن فرنسا هى أمة الأمم ، وأن باريس هى مدينة المدن وإلهة الجمال والعلوم والفنون ؛ ومازالت هذه الألوان الوردية المغرقة تطبع كل ما نكتب عن فرنسا وباريس

على أنه يلوح لنا أن هذه الفتنة التى قد تجد مبرراتها فى بعض المؤثرات والظروف الخاصة ، والتى تثيرها فى معظم الأحيان

أهواء وميول خاصة ، ويذكيها الجهل بأحوال الأمم والعواصم الأخرى ، وانعدام روح المقارنة الذى تتضاءل أمامه الصور والألوان الخلابة ؛ يلوح لنا أنها فتنة مبالغ فيها ، وأن شيئاً من الملاحظة البريئة ، وقليلاً من الاتزان فى الوصف والرواية ، وطرح المؤثرات والاعتبارات الخاصة مما يعاون على عرض صور أصدق وأدق من تلك الصور الوردية التى عرفناها وألفناها

ومهما يكن فى هذه الصور القديمة من صدق ؛ ومهما يكن لهذه الفتنة القديمة من مبررات ، فأنا نقول لأولئك الذين يرون العالم كله فى فرنسا وفى باريس : إن الأمور قد تغيرت أعظم تغير فى فرنسا وفى باريس

وكاتب هذه السطور سائح متجول يرى ويلاحظ ، ولكنه لا يدعى الوصول إلى المجهول والخارق ، وإنما يلاحظ ويقدر ما تهدى إليه المشاهدة والتجارب بعيداً عن كل اعتبار وهوى

***

لم تقدم فرنسا أية تسهيلات للسياحة سواء فى مسألة النقد أو السكك الحديدية أو الفنادق أو غيرها كما فعلت ألمانيا وإيطاليا ، وما زالت تعتمد على جاذبيتها القديمة ؛ غير أن فرنسا تخدع اليوم فى قيمة هذه الجاذبية ؛ وقد انحط موسم السياحة فى فرنسا انحطاطاً عظيما ، ولم تعد باريس كما كانت فى الماضى تعج بعشرات الألوف من الأجانب ولا سيما الأمريكيين والانكليز ؛ وأهم عامل فى هذا التحول هو ارتفاع قيمة الفرنك الفرنسي بالنسبة لنقد البلاد التى خرجت عن معيار الذهب . فالأمريكى أو الانكليزى أو المصرى الذى يزور فرنسا يفقد نحو أربعين فى المائة من قيمة نقده ؛ أضف إلى ذلك الغلاء الفاحش الذى يغمر كل شىء فى فرنسا ؛ فى الفندق والمطعم والمقهى ، وفى الملاهى والتنقل وكل ما يتصل بالحياة اليومية ، تشعر بوطأة هذا الغلاء المرهق ، وتشعر كأن النقد يذوب بين يديك سراعاً

ولنضرب أمثلة مادية ؛ فالغرفة البسيطة فى فندق متوسط تكلف فى اليوم من ٢٥ إلى ٤٠ فرنكا [1] (من ٣٣ إلى ٥٢ قرشاً) ووجبة الطعام فى مطعم متوسط تكلف من ١٥ — ٢٥ فرنكا (٢٠ — ٣٣ قرشاً) هذا عدا الخدمة وهى من ١٠ إلى ١٥ فى المائة ؛ وثمن البيضة الواحدة فى المقهى أو حيث تتناول إفطارك فرنكان ونصف (٣ر٥ قروش) وثمن الواحدة من الموز أو التفاح أو الخوخ شراء يتراوح بين فرنك ونصف وثلاثة حسب النوع والحجم ؛ وأما فى المقهى فما خلا القهوة والنبيذ والكونياك والبيرة ، فان أثمان المشروبات الأجنبية تبلغ حدوداً تزهدك دائماً فى طلبها ؛ والسجائر الفرنسية رخيصة ولكنها سخيفة لا يقبلها الذوق ، والسجائر الأجنبية تكلف ضعف ثمنها وأحياناً ثلاثة أمثال ؛ وأما التنقل فى مدينة عظيمة كباريس فلست أحدثك عن « التاكسى » لأنه ترف لا يطيقه سوى الأغنياء ، ولكنى أقول إن أجور الأمنيبوس والترام الذى بقيت منه خطوط قليلة هى الضعف وأحياناً ثلاثة أمثال أجورها التى نعرفها هنا ؛ ولولا شبكة الترام الأرضى (المتروبولتان) التى تربط أحياء باريس وأطرافها ربطاً محبباً بأجر زهيد (سبعين سنتيما أو نحو قرش صاغ) لكانت باريس أتعس العواصم من حيث المواصلات

هذه أمثلة وملاحظات نعنى بها السائح المتوسط ولا نعنى بها طبقة الطلبة أو أولئك الذين يلجأون إلى بعض الفنادق الشعبية الرخيصة حول الحى الجامعى فى سان ميشيل وفوجيرار ، ويتناولون طعامهم فى مطاعم العمال ، فهؤلاء حقاً يستطيعون أن يستمرئوا نوعا من العيش الرخيص لا يستسيغه السائح المتجول مهما كان من تواضعه وقناعته

ولا تنس إلى جانب ذلك الغلاء المرهق تلك الضريبة التعسفية التى أصبحت رذيلة اجتماعية شنيعة فى فرنسا (وفى غيرها أيضاً) ونعنى «البقشيش» ، فى كل مكان وفى كل مناسبة ، فى التاكسى وفى المطعم والمقهى والمسرح وأينما حللت ، يمثل شبح البقشيش ، ويطلب بالحاح خشن ؛ وكل شىء يتطلب عطية حتى ولو لم تقدم أية خدمة ؛ والشره خلة بارزة لتلك الطبقة التى تحتك بها فى كل لحظة ونعنى طبقة الخدم والسقاة ؛ وروح الجشع تبدو فى كل مكان ؛ وقد تدخل المسرح أو الملهى الواحد فيطلب اليك البقشيش أربعة أو خمسة متعاقبون من الخدم قبل أن تجلس فى موضعك ، وإذا ترددت قيل لك إنا هنا لا نتناول أجراً ونعتمد على البقشيش ، وإذا لم تتذرع بشىء من الحزم والبرود كانت الخسارة فادحة ؛ هذا إلى المفاجآت السيئة فى الحساب ؛ ففى معظم الأحيان تدفع أكثر مما تتوقع لأسباب وأبواب غير معقولة ولكن لا مفر من إجابتها

ولقد قيل فى يونيه الماضى إن البرلمان الفرنسى قد أقر قانونا بالغاء « البقشيش » ، وقد صدر القانون فعلاً ، ولكنا أسأنا فهمه وإدراك مقصده ، فلم يكن قصد الحكومة الاشتراكية أن تحرم

(١) الفرنك نحو ١٣ مليما

الخدمة ومن إليهم من نعم هذه الضريبة المرذولة ، بل كان قصدها أن تجعل « البقشيش » حقاً وضريبة مشروعة لا عطية فقط ، وأن تحفظ كرامة هذا الخادم أو العامل فلا ينتظر البقشيش كعطية أو نفحة وإنما يرى فيه حقاً مكتسباً ينظم دفعه حسب الظروف والأحوال ؛ ولهذا كان أول ما قرأنا في تعليمات الفندق في مرسيليا ما يأتي : « بما أن البقشيش قد ألغى ، فقد قررت إدارة الفندق أن تحتسب بدل خدمة قدره عشرة في المائة ! »

ومما يلاحظه السائح في فرنسا ، وفي باريس بنوع خاص ، أن الأمانة في المعاملات ليست متوفرة دائماً ؛ وربما كان أول وأشهر التجارب التي يلاقيها السائح في ذلك هي مسألة التاكسي ؛ فاذا لم تكن تعرف الطريق أو لك فكرة عنه فويل لك من السائق ؛ وقلما تجد سائقاً يقودك الى المكان المقصود مباشرة ، ولا بد أن يطوف بك حيناً قبل أن يقودك إليه ، وعبثاً تلاحظ أو تعترض ، وعند الحساب تضاف إلى الأجر ملحقات زائفة يؤيدها السائق بالصخب والوعيد ؛ والويل لك إذا ترددت في الدفع ؛ وهذه تجربة أعتقد أن كل سائح مستجد يلقاها في فرنسا ؛ وقد بلوتها غير مرة وسمعت في شأنها روايات مدهشة مضحكة معاً عن تفنن السائقين في ابتزاز الملحقات غير المشروعة . وإنك لتلقى مثل هذا الغش أحياناً في المطعم والمقهى إذا لم تحسن مراجعة الحساب ؛ ومن الحق أن نقول إنك تلقى مثل هذه التجارب في غير فرنسا ، وإنك تلقاها في إيطاليا وباقي أمم البحر الأبيض ، ولكن يندر أن تلقاها في أمة من الأمم الشمالية

وحب المال خلة مشهورة في فرنسا ، وهي تذهب الى حد الجشع المثير ، وإنك لتلمس هذا الشره في كل المعاملات ، وتشعر بأن روح المادة والاستغلال تطغى على كل شيء وكل اعتبار ، ومن ثم كان شغف الكسب بأي الوسائل ، وكان تجلي الأثرة وانعدام روح المعاونة والمروءة في معظم الطبقات التي تحتك بها . ومن النادر أن تجد في باريس من يتقدم لمعاونتك أو إرشادك لمعرفة مكان أو غيره بشيء من التطوع أو الرقة التي تأنسها في بلاد أوربية أخرى ؛ وإذا قدم إليك مثل هذا العون شعرت أنه مقرون بالسرعة والمن ، وأحياناً بالتكلف والجفاء ، كأن وقت الفرنسي كله وكلماته كلها من ذهب ؛ وكثيراً ما تجاب بهز الأكتاف و« ليس عندي وقت » وأمثالها

هذا وقد أفسدت الروح الاشتراكية أخلاق الطبقات الدنيا وآدابها ، فالعامل والصانع والبائع والخادم والموظف الصغير ، هؤلاء جميعاً يتصورون أنهم سادة الموقف في فرنسا ، وأن المستقبل لهم . وإنك لتلاحظ هذا الأثر السيء بنوع خاص في طبقة العمال والخدم ، فهم يؤدون أعمالهم بتكلف ولا يحفلون بشيء ؛ وهم يشعرونك دائماً عند الحديث أنهم سادة مثلك ، ولهم في ذلك إشارات وألفاظ وقحة . وقد كان لحوادث أسبانيا في هذه الطبقات أثر عميق ملموس ؛ وكم سمعنا في الفندق والمطعم وفي الشارع والمترو من بعض أفراد هذه الطبقات أن الحكومة الاشتراكية إذا لم تجب مطالب الطبقات العاملة ، وإذا لم تسع الى تحسين الأجور وتخفيض مستوى المعيشة ، فان ما وقع في أسبانيا سوف يقع قريباً في فرنسا

وقد عرفت فرنسا أنها بلد الجدل السياسي ؛ ولكن هذا الجدل يحتدم اليوم في فرنسا بشدة ظاهرة ويغمر كل الطبقات ؛ وقد تشهد هذا الجدل في الشارع وفي المقهى وفي الترام ، وتسمع أغرب الآراء وأشدها تطرفاً . وتلقى الصحف على اختلاف نزعاتها رواجاً عظيماً بين كل الطبقات ، وتلقى الصحف والنشرات الاشتراكية رواجاً خاصاً بين الطبقات العاملة . وقد لفت نظري كتابان يعرضان للبيع بكثرة ويقبل الناس على شرائهما ، أولهما رسالة عن حياة مسيو « ليون بلوم » رئيس الوزارة الفرنسية الحاضرة ، والثاني كتاب عنوانه « دوريو رجل الغد » ، ودوريو هو النائب الشيوعي الذي خرج على الحزب الشيوعي وعلى أوامر موسكو وكون لنفسه شعبة خاصة تتقدم كل يوم في الاهمية والعدد ؛ ويرى كثيرون أن دوريو هذا سيكون من قادة الغد ، وأنه ربما اضطلع بدور عظيم في التطورات السياسية المقبلة

ومما يلفت النظر بنوع خاص حالة القلق السياسي التي تسود فرنسا اليوم ، وتبدو ظاهرة في كتابات الصحف وفي تعليقات الأفراد ، ويشمل هذا القلق الشؤون الداخلية والخارجية معاً ؛ ففي ميدان الشؤون الداخلية يشعر الكثيرون بأن فرنسا مقبلة على تطورات سياسة هامة ، وأنه ربما اقترنت هذه التطورات بشيء من العنف . وفي ميدان الشؤن الخارجية يرى الكثيرون أن احتمالات الحرب الأوربية تتقدم بسرعة ، وأن نشوبها ربما كان أقرب مما يتصور الناس ، وأن فرنسا ستدعى في القريب العاجل إلى خوضها ؟

(يتبع)

(***)

الجانب الصوفى
فى الفلسفة الاسلامية
للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

— ٣ —

تمتاز فلسفة الفارابى بظاهرتين رئيسيتين : نزعة روحية نامية ، واتجاه صوفى واضح . والمذهب الروحى والتصوف يقتربان فى الواقع ويتلاقيان فى نواح كثيرة . وهاتان الظاهرتان تبدوان لدى فلاسفة الاسلام بدرجات مختلفة . وقد نفذ التصوف الفارابى على الخصوص إلى أعماق المدرسة الفلسفية العربية وأثر فى صوفية المسلمين بوجه عام . ولم يقف أثره عند القرون الوسطى ، بل تعداها إلى التاريخ الحديث . وبعد أن أسلفنا القول فى شرح نظرية السعادة الفارابية وبيان مصادرها الأرسطية والأفلوطينية فانه يجدر بنا الآن أن نلقى نظرة على الأثر الذى أحدثته فيمن جاء بعد الفارابى من فلاسفة ومفكرين ؛ وكى تكون هذه النظرة مستوفاة يحسن أن نبين من جانب إلى أى حد تأثر كبار فلاسفة الاسلام بآراء الفارابى التصوفية ، كما تأثروا بأبحاثه الأخرى ؛ ومن جانب آخر ينبغى أن نحدد العلاقة بين هذا التصوف الفلسفى وما ذهب اليه صوفية المسلمين المتأخرون . وحبذا لو استطعنا أخيرا أن نوازن بين نظرية السعادة الفارابية وبعض الأفكار الصوفية التى اعتنقتها طائفة من الفلاسفة المحدثين . وبالجملة سنتابع هذه النظرية فى خطواتها المتتالية إلى أن نسلمها إلى العصور الحديثة ، وسنحاول عرض صورة مختصرة لتاريخها العام

إذا كان فى فلاسفة الاسلام من يصح أن نسميه تلميذ الفارابى وخليفته الأعظم فهو بلا جدال ابن سينا . حقا إن التلميذ عدا على الأستاذ وأخفى اسمه وانتزع مكانته وقضى على شهرته ، وأصبحنا ونحن نعزو إلى ابن سينا آراء وأفكاراً هى فى الحقيقة من صنع الفارابى وابتكاره ؛ بيد أن الأول يعترف للثانى بأياديه عليه ، ويقر له بالسبق والأولوية ، ويدين له بالخضوع والأستاذية [١] . ولقد بلغ من تعلق ابن سينا بنظريات أستاذه أن بذل كل مجهود فى تفهمها وأفاض فى شرحها وتوضيحها بحيث منحها نفوذا وسلطانا لم تنله على يدى صاحبها ومبتكرها . ورب فكرة فارابية غامضة مبهمة تبدو لدى ابن سينا ، وهو صناع اليدين ، فى ثوب قشيب ومظهر خلاب . وإذا كان ابن رشد هو شارح أرسطو غير منازع فى الفلسفة المدرسية ، فان ابن سينا هو شارح الفارابى الماهر فى الفلسفة الاسلامية . وقد يؤخذ علينا أحياناً أنا نحاول تحليل أفكار الفارابى على ضوء ما كتب ابن سينا [٢] ، إلا أن الرجلين فى رأينا متضافران ومتكاملان ، يوضح كل واحد منهما صاحبه ويتممه . ولئن كان للفارابى فضل السبق ، فلابن سينا فضل البيان والايضاح . ومن ذا الذى يدعى أن فى مقدوره دراسة أرسطو دراسة كاملة دون الرجوع إلى شراحه من المشائين وغيرهم ؟ ولو احتفظ لنا الدهر بكل ما كتب الفارابى فلعلنا لم نستعن دائماً على تفهمه بمؤلفات أتباعه ؛ فأما وما وصل الينا من كتبه نزر يسير ، فنحن مضطرون إلى توضيح غامضه بمختلف الوسائل . على أن المؤرخ الذى يعنيه أن يبين كيف نشأت فكرة ما ، يلزمه كذلك أن يوضح كيف نمت وتطورت

اعتنق ابن سينا مختلف آراء الفارابى التصوفية وتولاها بالشرح والدرس فى رسائل متعددة نخص بالذكر منها كتاب الاشارات والتنبيهات ، وهذا الكتاب بين المؤلفات السينوية (نسبة الى ابن سينا) يتيمة العقد وجوهرة التاج الثمينة وثمرة النضوج الكامل . يمتاز بسمو أسلوبه وعمق أفكاره وتعبيره عن آراء ابن سينا الخالصة التى لا تشوبها نظريات المدارس الأخرى . وقد وقف صاحبه الجزء الأخير منه على الأبحاث التصوفية ، ويقع فى نحو خمسين صفحة تعد من أحسن ما خلفته المدرسة الفلسفية الاسلامية فى هذا الباب . فقد أخذ ابن سينا على حسب عادته أفكار الفارابى وفصل القول فيها وعرضها عرضاً مسهباً مرتباً . فهو يحدثنا عن

(١) القفطى ، أخبار الحكماء ، ص ٤١٦ — ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ص ٤

(٢) هذا أمر عابه علينا حديثاً صديقنا المسيو كراوس فى مجلة الأبحاث الاسلامية (Rev. des Etudes Isl., 1935, p. 226) وقد أردنا أن نلفت الأنظار اليه

« التجريد » و « البهجة والسعادة » و « مقامات العارفين » و « أسرار الآيات » ويشرح نظرية الاتصال شرحاً مستفيضاً . وهذا هو القدر الذى جمعه وترجمه مهرن الى الفرنسية ونشره تحت عنوان : Traités mystiques d'Avicenne وها كم نموذجاً من حديث ابن سينا العذب ولغته السامية التى تترجم عن معان سبقه بها الفارابى يقول : « إن للعارفين مقامات ودرجات يُخَصَّون بها فى حياتهم الدنيا دون غيرهم . فكأنهم فى جلاليب من أبدانهم قدنضوها وتجردوا عنها الى عالم القدس . ولهم أمور خفية فيهم ، وأمور ظاهرة عنهم ، يستنكرها من ينكرها ، ويستكبرها من يعرفها ، ونحن نقصها عليك . . . العارف يريد الحق الأول لا لشىء غيره ولا يؤثر شيئاً على عرفانه ، وتعبده له فقط ؛ لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه ، لا لرغبة أو رهبة ... العارفُ هشٌ بشٌ بسّام يبجل الصغير من تواضعه مثل ما يبجل الكبير ، وينبسط من الخامل مثل ما ينبسط من النبيه . وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شىء فانه يرى فيه الحق . وكيف لا يسوى والجميع عنده سواسية ؟ . . العارف لا يعنيه التجسس والتحسس ، ولا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر كما تعتريه الرحمة فانه مستبصر بسر الله فى القدر . وإذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنفِ مُعَيِّر . وإذا جسُم المعروف فربما غار عليه من غير أهله . العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن تَقيّة الموت ؟ وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن محبة الباطل ؟ وصفّاح ، وكيف لا ونفسه أهون من أن تجرحها زلة بَشر ؟ ونَسَّاء للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق[1] »

يصف ابن سينا كأستاذه المراحل التى تقود المرء الى السعادة ويتكلم عن الزهد والعبادة ، ثم عن العرفان الذى هو السعادة الحق . « فالمعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد ، والمواظب على نفل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يُخص باسم العابد ، والمنصرف بفكره الى قدس الجبروت مستديما[2] لشروق نور الحق فى سره يخص باسم العارف » . وليست السعادة مجرد لذة جسمية ، بل هى غبطة روحية وسمو معنوى واتصال بالعالم العلوى ؛ هى عشق وشوق مستمران ، وما العشق الحقيقى إلا الابتهاج بتصور حضرة الحق ؛ وما الشوق إلا الرغبة الدائمة فى كمال هذا الابتهاج[1] . « والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة العليا فى حياتها الدنيا كان أجل أحوالها أن تبقى عاشقة مشتاقة لا تخلص من علاقة الشوق ، اللهم إلا فى الحياة الأخرى . وتتلو هذه النفوس نفوس بشرية مترددة بين جهتى الربوبية والسفالة على درجاتها ، ثم تتلوها النفوس المغموسة فى عالم الطبيعة المنحوسة ، التى لا مفاصل لرقابها المنكوسة[2] » . والوسيلة الأولى والرئيسية لادراك السعادة هى الدراسة والبحث والنظر والتأمل . وأما الأعمال البدنية والحركات الجسمية ففى المرتبة الثانية ، ولا يمكن أن تحل محل التهذيب الفكرى والرقى العقلى بحال .

قد يخيل للقارئ بعد هذا التحليل أن ابن سينا أميل من أستاذه إلى متصوفة القرن العاشر أمثال الجنيد والحلاج . ولاسيما وكتاباته مملوءة بمصطلحات الصوفية وألفاظهم الفنية . فهو يردد كلمة الزهد والوجد والوقت ، ويبين حقيقة المريد والعارف والعابد ، ويحلل بعض العواطف النفسية كالعشق والشوق التى شغلت كبار متصوفى المسلمين . غير أنه على الرغم من كل هذا لا يزال ابن سينا وفياً لأستاذه فى نظرياته التصوفية كما وفى له فى كل مذهبه الفلسفى ، ولا أدل على هذا من إعراضه عن فكرة الاتحاد التى زعمها الجنيد والحلاج ونقده لها نقداً فيه دقة وتعمق . فهو يرى أن غاية السعادة ليست إلا مجرد اتصال بين العبد وربه يحظى فيه الانسان بضرب من الاشراق لا يصدران عن الله مباشرة ، بل بواسطة العقل الفعال . وأما الاتحاد المزعوم الذى يقضى بأن يندمج الخلق فى الخالق فغير مقبول عقلاً ، لأنه يستلزم أن يكون الشىء واحداً ومتعدداً فى آن واحد . ذلك لأنا لا نقبل أن نعد العقل الفعال فرداً واحداً فى الوقت الذى نقرر فيه أنه محتو على كل النفوس الواصلة ، كما لا نستطيع أن نسلم بفردية العارف فى حين أنا نعترف باشتماله على حقيقة أخرى خارجة عنه . وانظر كيف يصوغ ابن سينا هذا الدليل . « قد يقولون إن النفس

(١) ابن سينا ، الأشارات والتنبيهات ، ١٩٨ — ٢٠٦
(٢) المصدر نفسه ، ١٩٩

(١) المصدر نفسه ، ١٩٧
(٢) المصدر نفسه ، ١٩٨

الناطقة إذا عقلت شيئاً فانما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال وهذا حق . قالوا واتصافها بالعقل الفعال هو أن تصير هي نفس العقل الفعال ، لأنها تصير العقل المستفاد ، والعقل الفعال هو نفسه يتصل بالنفس فيكون العقل المستفاد ، وهؤلاء بين أن يجعلوا العقل الفعال متجزئاً قد يتصل منه شيء دون شيء ، أو يجعلوه متصلاً بكليته بحيث يُصيّر النفس كاملة واصلة إلى كل معقول (وكلا الغرضين باطل) ، على أن الاحالة في قولهم إن النفس الناطقة هي العقل المستفاد حينما يتصورونه قائمة [1] » . ويضيف ابن سينا إلى هذا : « إن قول القائل إن شيئاً ما يصير شيئاً آخر لا على سبيل الاستحالة من حال إلى حال ولا على سبيل التركيب مع شيء آخر ليحدث شيء ثالث بل على أنه كان شيئاً واحداً فصار واحداً آخر ، قول شعري غير معقول ، فانه إن كان كل واحد من الأمرين موجوداً فهما اثنان متميزان ، وإن كان أحدهما غير موجود فقد بطل الذي كان موجودا [2] »

فتصوف ابن سينا لا يختلف إذن عن تصوف الفارابي في شيء ، وسيلتهما وغايتهما متحدتان . يقول البارون كارا دي ڤو : « لا يبدو التصوف عند ابن سينا إلا في آخر المذهب كتاج له ، وهو متميز تماما من الأجزاء الأخرى ؛ وابن سينا يدرسه دراسة فنية كأنه فصل من الفلسفة يشرحه شرحا موضوعياً ، وبالعكس ينفذ تصوف الفارابي إلى كل شيء ، والألفاظ الصوفية منتشرة في كل ناحية من مؤلفاته ؛ ونشعر جيداً أن التصوف ليس مجرد نظرية اعتنقها ، بل حالا نفسية [3] » . ونحن نسلم مع البارون أن تصوف الفارابي — على عكس ابن سينا — يعبر عن عاطفة صادرة من القلب ، وحياة الرجلين تشهد بذلك ، ولكنا نرفض من الناحية النظرية أن يكون ثمت فرق بين تصوف التلميذ وتصوف الأستاذ ، كلاهما يعتمد على أساس واحد ، ويشغل مكانا متعادلا في مذهبيهما ؛ وكل ما هنالك من تباين هو وضوح ابن سينا وطريقته التعليمية المنظمة التي يدرس بها المسائل على اختلافها . وأما الألفاظ الصوفية فقد لاحظنا آنفاً أنها أكثر لدى ابن سينا منها عند أستاذه

إذا كان الفارابي وابن سينا هما بطلي الدراسة الفلسفية في الشرق ، فابن باجة وابن طفيل وابن رشد هم أعلامها في الغرب . وبما أن البحث العلمي في الشرق أسبق منه في الغرب فان أهل الأندلس مدينون لاخوانهم المشارقة بكثير من آرائهم ونظرياتهم . لذلك لم يكن بدعاً أن تقتفي المدرسة الفلسفية الأسبانية أثر المدرسة الشرقية ، وأن نرى ابن باجة وابن طفيل مثلاً يتبعان خطى الفارابي وابن سينا . وكم يسوءنا أنا لا نعرف حتى الآن عن ابن باجة الشيء الكثير ، فان معظم كتبه قد باد ، وما بقي منها لا يزال مخطوطاً وموزعاً بين المكاتب الأوربية . وكتابه الرئيسي وهو تدبير المتوحد لم يصلنا عن طريق عربي ، ولو لم تحتفظ لنا الترجمات العبرية بأجزائه الهامة ما وقفنا على خبره . ويرجع الفضل في استكشافه الى مستشرق إسرائيلي من رجال القرن التاسع عشر هو سلمون منك صاحب الفلسفة اليهودية والعربية ومترجم دلالة الحائرين الى الفرنسية . وإذا اعتمدنا على ما نقله (منك) أمكننا أن نقرر أن نظرية الاتصال الفارابية قد نالت حظوة كبيرة لدى ابن باجة . وكتابه تدبير المتوحد قائم على إثبات أن الانسان يستطيع الاتصال بالعقل الفعال بواسطة العلم وتنمية القوى الانسانية [1] . والفضائل والأعمال الخلقية جميعاً ترمي الى سيادة النفس العاملة واستيلائها على النفس الحيوانية . وبالجملة يجب على المرء أن يسمى جهده الى الاتصال بالعالم العلوي مشتركا مع الجمعية أو منعزلاً عنها ، فان كانت الجمعية صالحة قاسمها في مختلف شؤونها ، وان كانت طالحة لازم الخلوة والانفراد [2] . وهنا يبدو ابن باجه متأثراً بالصوفية المسلمين فوق تأثره بالفارابي ، فان الأخير لم يدع الى الوحدة قط ؛ ومن شرائط المدينة الفاضلة في رأيه أن تقود الأفراد الى السعادة ان لم تصل بهم إليها . وكتاب تدبير المتوحد في جملته مستقى من مؤلفات الفارابي وابن سينا ، اللهم إلا الجزء الخاص بنظام العزلة والانفراد فهذا تغلب عليه نزعة صوفية بحتة

ومهما يكن فقد وضع ابن باجة الحجر الأساسي في بناء

(١) المصدر نفسه ، بتصرف ، ص ١٧٩ — ١٨٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠

(٣) Carra de Vaux, Eucyc. de l'Islam, II. p. 58.

(١) Munk, Mélanges, p. 410.

(٢) Ibid, pp. 398—99.

المدرسة الفلسفية الأسبانية وسار على نهجه ابن طفيل . وحياة ابن طفيل غامضة غموض حياة ابن باجة ، ومؤلفاته ليست أعظم حظا من مؤلفات سابقه فقد باد معظمها ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة . بيد أن روايته الفلسفية المشهورة (حى بن يقظان) التى وصلت الينا تشتمل على مذهبه عامة فى أسلوب جذاب وخيال بديع ، وتعد هذه الرواية من أطرف ما خلف فلاسفة الاسلام ، وقد ترجمت الى لغات عدة ، وكانت فى غالب الظن نموذجا نسج على منواله روبنسون كروزو . وابن طفيل يحاول أن يثبت فيها أن القوى الانسانية تستطيع وحدها الاتصال بالله . فقد تصور شخصاً نشأ منعزلاً عن الناس ولم يتأثر بالجمعية قط ومع هذا تمكن بعقله الفردى إدراك الحقائق الكونية والتدرج منها إلى حقيقة الحقائق التى أفاضت عليه بالنور والمعرفة ، وهذا الشخص هو « حى بن يقظان » الذى ولد فى جزيرة قرب خط الاستواء ولم ير أباً ولا أماً ، وإنما منحته الطبيعة غزالة تولت إرضاعه وتغذيته[1] . ولم يكد يشب ويترعرع حتى اتجه نظره إلى ما حوله ، فيبحث فى الظواهر الكونية وسر تغيرها ، وانتهى إلى أن وراءها أسبابا خفية تتصرف فيها وصوراً تشكلها ، وهذه الصور صادرة عن كائن قديم يسميه الفلاسفة العقل الفعال[2] . ولم يزل يبحث ويعلل حتى أدرك أن سعادة الانسان وشقاءه راجعان إلى قربه من ربه وبعده عنه . ووسيلة القرب والصعود إلى عالم النور والملائكة هى النظر والتأمل[3] . وسواء أكان هذا الفرض مقبولا أم مرفوضاً لدى علماء الاجتماع المحدثين فانه يبين لنا أولا كيف تأثر ابن طفيل بفيلسوف الأندلس الأول ابن باجة ، فان « حى بن يقظان » يحمل فى ثناياه كثيراً من خصائص « التوحيد » الذى أشرنا إليه من قبل . وثانياً فى لغة « حى » الخيالية وصوره المجازية ما يعبر تعبيراً صادقاً عن نظريات الفارابى فى السعادة والاتصال

أما ابن رشد فلم ينح هذا النحو الخيالى الفرضى ، بل درس مشكلة الاتصال بالعقل الفعال دراسة علمية منظمة ، مبيناً أن هذا الاتصال فى ذاته لا يتنافى مع أصول علم النفس المعروفة . وقد وضع فى هذا الموضوع ثلاث رسائل مستقلة احتفظت لنا المصادر العبرية باثنتين منها[1] . وهو يرى أن الطفل يولد وفيه استعداد لتقبل المعلومات العامة ، فاذا ما أخذ فى الدراسة والتعلم تحول هذا الاستعداد إلى عقل بالفعل ، ولا يزال هذا العقل ينمو ويرق حتى يتصل بالعقول المفارقة ويستمد منها الفيض والالهام ، وهذا هو الكمال الأسمى الذى نطمح اليه جميعاً ؛ والطريق الموصلة اليه هى تنمية المعلومات وترقية المدارك الانسانية ، فالعلم وحده سبيل السعادة والاتصال بعالم العقول والأرواح . أما ما يذهب اليه المتصوفة من أن الانسان يستطيع الصعود إلى هذه المرتبة دون علم ولا بحث فادعاء باطل وقول هراء[2] . وعلى فى هذا الذى قدمنا ما يكفى لاثبات أن ابن رشد اعتنق كزملائه فلاسفة الأندلس الآخرين — وإن يكن أقلهم تصوفا — نظرية السعادة الفارابية . ومن الغريب أنه لم يدخر وسعاً فى نقد الفارابى وابن سينا وتجريحهما ، ولا سيما إذا أحس منهما انحرافاً عن سنة أرسطو ، ومع ذلك لم ينج من أثرهما ، ولم يستطع أن يكوّن لنفسه مذهباً مستقلاً يخالف مذهبهما ، وهو أشد ما يكون تأثراً بهما فى المسائل التصوفية . فهو يعلن مثلهما أن العلم سبيل الوصول والسعادة الروحية ، وأن أسمى درجات الكمال أن يخترق المرء الحجب ويرى نفسه وجهاً لوجه أمام الحقائق العلوية ، ويرفض رفضاً باتا أن يكون تقشف الصوفية وزهدهم وسيلة التجرد والاتصال ؛ فمن الفارابى إلى ابن رشد اعتنق فلاسفة الاسلام بلا استثناء نظرية السعادة . والفارابى وابن سينا يدعمان هذه السعادة رأساً على الدراسة والنظر ، مع الاحتفاظ بمكان للعقل العملى والحركات الجسمية ؛ وابن باجة وابن طفيل يوسمان الجانب العملى ؛ وابن رشد يعود أخيراً فيقرر مع أرسطو أن الخير الأسمى لا يتم إلا بالعلم والتأمل

(يتبع)

ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

(١) ابن طفيل ، حى بن يقظان ، ص ٣٠ — ٣٤
(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٥ — ٨٦ ، ١٩٣ — ١١٤
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ — ١٠٨

(١) ابن أبى أصيبعة ، عيون الأنباء ، ج ٢ ص ٧٧ — ٧٨
Munk, Mélanges, p. 437
(٢) Ibid., p. 454

في الأدب المقارن

طور الثقـافة

في الأدبين العربي والانكليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يمر أدب كل أمة بثلاثة أطوار كبرى تتبع عهود رقي الجماعة: فطور الهمجية يليه طور البداوة ويلي هذا طور الحضارة؛ وفي الطور الأول لا يكون للأدب وجود مستقل بنفسه، بل يكون الشعر تعبيراً ساذجاً عن بسيط العواطف ممتزجاً بالغناء والرقص، ويكون النثر شذوراً من الخرافات والمعتقدات المتوارثة عن الآلهة والجان وقوى الطبيعة؛ ويأتي الطور الثاني بارتقاء عقلية الجماعة بممارستها أعمالاً أرقى وأدق واختلاطها بالأمم الراقية؛ وفي هذا الطور يتميز الشعر ويستقل عن غيره من الفنون وتتسع جوانب النثر، ولكن يظل الشعب على رغم ارتقائه العقلي فطرياً متبدِّياً، حتى إذا عبر هـذا الطور إلى طور الحضارة ازداد ترفاً في الحياة ومارس العلوم المنظمة وعرف الكتابة، فظهر في أدبه أثر الثقافة والفن والصناعة

وقد مر الأدب العربي بالطور الثاني من هـذه الأطوار في عهد الجاهلية وصدر من الاسلام: ففي ذلك العهد كان العرب على جانب يعتد به من الرقي العقلي لمزاولتهم التجارة ووقوفهم على حضارة الفرس والروم، وفي ذلك العهد نضجت اللغة العربيـة نضجاً عظيماً وبلغ الشعر من الرقي شأواً بعيداً، بيد أن الأدب ظل فطرياً بعيداً عن أثر الثقافة والدراسة والتدوين والصنعة، ثم نهض العرب نهضتين علميتين في مدى قرنين: أولاهما بظهور الاسـلام ونزول القرآن وفتح الأقطار، والثانية بترجمة علوم الأقدمين، وبذلك انتقـل الأدب العربي إلى الطور الثالث من أطوار رقيه: طور الحضارة والثقافة

وقد انتقل الأدب الانجليزي إلى هذا الطور أيضاً بنهضتين متواليتين: الأولى في القرن السادس عشر بوصول حركة إحياء علوم الأقدمين — اليونان والرومان — من أوربا إلى انجلترا، والثانية في القرن التاسع عشر عقب التقدم الصناعي العلمي الذي كانت انجلترا رائدته وكان من أبنائها كثير من أئمة النهضـة العلمية الحديثة في علوم الفلك والحياة والطب والنفس وغيرها

ويلاحظ أن هناك اختلافاً في توالي النهضتين في الأمتين: فقد كانت نهضة العرب العلمية الأولى داخلية وليدة الدين الذي نشأ بين أظهرهم، وكانت الثانية خارجية آتية من نقـل علوم الأمم الأخرى، بينما في انجلترا جاء هذا النقل عن الأقدمين أولاً ثم كانت النهضة التاليـة داخلية نتيجة لتحسين أبناء البلاد لما نقلوه من علوم غيرهم

وقد أوفى العرب على الغاية في الشغف بالعـلوم والجد في تحصيلها، وأظهر أمراؤهم من التقدير للعـلم وأهله والرغبة في خدمته والبـذل في سبيله ما لم يظهره ملوك دولة في التاريخ، وكانت رعايتهم للعلماء — بعكس ما كان تقريبهم للشـعراء — جليل النفع بعيد الأثر

وكان للعرب من اللغة العربية الرحبة الجوانب، الطيِّعة الأسلوب، الغنية بطرائق الاشتقاق، خير معوان في جدهم في درس العلوم، وامتلأت جوانب اللغة بضروب الدراسات والثقافات، وكان رقيها العلمي في عهد الدول الاسلاميـة يفوق كثيراً رقيها الأدبي: فبينما ظل أدباء الجاهلية دائماً أساتذة للمتأخرين يحتذونهم في الأدب، أمعن علماء الاسلام وفلاسفته في مذاهب من التفكير والبحث لم يسمع بها الجاهليون ولا خطرت لهم على بال

ولم يقصر أدباء العربيـة عن غيرهم في تلك الحلبة العلمية المحتدمة، ولم يكونوا دون سواهم شغفاً بالعلم وطلباً لشوارده، بل كان أكثرهم مثقفين ثقافة علمية وأدبية عالية، وقد تلقوا علومهم على طريقة عهدهم: فمن نشأ في يسار أحضر له المؤدبون، ومن ترعرع في بيت علم وفضل قام أبوه بتأديبه، ومن قصر به جده عن هذا وذاك تنقل بين الأدباء واختلف إلى العلماء حيث كانوا يجلسون للدرس؛ أما المدارس والجامعات فلم تنشأ إلا متأخرة، قبيل بدء عهد الركود الفكري، ولم يكد يتخرج فيها عَلَم من أعلام الأدب

وكان من خصائص الثقافة الاسلاميـــة ترامي أطرافها واختلاف أجناس الخائضين غمارها وشمولها شتى العلوم والمذاهب والعقائد من متفرق الأمم وامتزاج العلم بالأدب والدين بالفلسفة فيها، وقد ظهر أثر كل هذا في المؤلفين وفي مؤلفاتهم: كانوا

طموحين فى طلبهم العلم يبغون تمثُّل كل ما فى عصرهم من مناحى التفكير ، وكانوا كذلك طموحين فى مؤلفاتهم يحبون أن يودعوها كل فن . ولو أردنا أن نشير إلى الأدباء الذين نالوا حظاً عظيما من الثقافة لأحصينا أكثر أدباء العصر العباسى الزاهى بين القرنين الثانى والخامس الهجرى . ويكفى أن نذكر من الشعراء المعرى الحكيم المعنى بشؤون الكون والفلك والحياة الاجتماعية ، ومن الكتاب الجاحظ العالم الكلف بدراسة الحيوان وتذوق كل قديم وجديد وقريب وبعيد فى الحياة والكتب ، والذى كان — كما قيل — يستأجر المكاتب ليلاً ليبيت فيها يستوعب محتوياتها

تماثلَ الكتّاب والشعراء فى الأخذ من الثقافة بنصيب ، ولكن كان الكتاب على العموم أوفر حظاً من الثقافة عامة ومن العلوم خاصة ، واقتصر بعض الشعراء على الدراسة الأدبية ، لأن الكتاب كانوا يترشحون للوزارة وكتابة الدواوين والولاية وتأديب أبناء الأمراء ، ولا بد لتلك المناصب من دراية واسعة وإلمام شامل ، ولأن كثيراً من الشعراء لم يكن للشعر عندهم غاية وراء استدرار الصلات والجوائز ، ولم تكن وظيفته عندهم تسجيل الآراء والخوالج النفسية ، فلم يكن بهم كبير حاجة إلى دراسة العلوم التى تهذب الفكر ، بل كان حسبهم أن يقفوا على مذاهب القول التى سلكها المتقدمون من الشعراء المداحين ، والبحترى أبرز أولئك الشعراء الذين عاشوا فى صميم عهد الثقافة بنجوة عنها ، فقد كان حريصاً على استبقاء السذاجة البدوية ، وجاء أكثر ديوانه الضخم مدحاً لمن يرجو عندهم العطاء ، وهجواً لمن خيبوا منه ذلك الرجاء

كان أعلام الأدب الانجليزى كذلك على جانب عظيم من الثقافة ، وقد حصلوا — عدا من قعدت بهم ظروف غير مواتية كشكسبير وجونسون — علومهم فى الجامعات التى أخذ نظامها عن العرب وأصبحت مواطن العلم والدرس ، ونَبُهَ صيت بعضهم وهم ما يزالون طلاباً بها ، وتشترك ثقافتهم مع ثقافة أدباء العربية فى الاشتمال على الفلسفة اليونانية ؛ ولكن بينما كانت دراسة الأدب العربى القديم تتم الباقى من ثقافة الأديب العربى ، كانت دراسة الأدب اليونانى تكمل ذلك الجانب من ثقافة الأديب الانجليزى . ومن ثم كان معظم الأدباء الانجليز ملمين باللغتين اليونانية واللاتينية ؛ ولمعرفة اللغات أثرها العظيم فى تكوين الأديب وتوسيع أغراض القول ؛ ويكثر الالماع إلى اليونان والرومان : تاريخهم وأساطيرهم ومشهورى رجالهم فى الأدب الانجليزى ، كما تكثر الاشارة إلى الجاهلية والجاهليين فى الأدب العربى

ويتشابه رجال الأدبين فى الرحلة عن الوطن فى نشدان العلم : فقد كان أدباء العربية يطوفون فى البلاد فى طلب أئمة العلوم يلزمونهم ، وفى طلب نوادر الكتب يستنسخونها ، وربما أضافوا إلى ذلك حج البيت الحرام . وكذلك جرت سنة الأدباء والمتعلمين عامة من ذوى اليسار الانجليز على الارتحال بعد نيل درجاتهم العلمية إلى أوربا وخاصة إلى إيطاليا مبعث النهضة الأوربية ، وربما أضافوا إلى ذلك الحج إلى آثار بلاد الأغريق مهد العلوم والآداب والفنون القديمة ؛ ولهذه الرحلة عن الوطن — فضلاً عن كسب العلم ومصاحبة العلماء — أعظم الأثر فى تكوين نفس الأديب وتوسيع أفق خياله

وكان لانتشار الثقافة فى الأمتين آثاره المتشابهة فى الأدبين : فارتقيا خيالاً وأسلوباً وأغراضاً ومعانى ، واتسعت جوانبهما ، وظهر فيهما التفنن والصنعة المقصودة ، وظهرت لغة علمية دقيقة التعبير بجانب لغة أدبية أنيقة التحبير ، وظهرت روح النقد وتجلت نزعة الشك من جراء اصطدام العلوم المستحدثة بالعقائد الموروثة ، واشتدت المنازعات الأدبية ، واحتدمت المشادات بين أنصار القديم وأتباع الجديد ، وظهرت آثار المذاهب الفلسفية واصطلاحات النظريات العلمية فى رسائل الكتاب وقصائد الشعراء ، ونبغ من المثقفين من يجمعون بين صناعتى العلم والأدب

ولا ريب أن هذا الطور الثالث من أطوار رقى الأدب التى أشير إليها فى صدر هذه الكلمة — طور الحضارة والثقافة — هو أرقى ما يصل إليه الأدب وفيه ينال ما قدر له من أسباب الكمال ، وفيه أنتج الأدب العربى خير نتاجه ، فالأدب لا يبلغ غايته إلا فى حضارة تحيط به ، وثقافة تغذيه ، وروح نقد تستحثه . وقد دام هذا الطور الأدبى فى العربية زهاء ثلاثة قرون حافلة ، تخلّف لنا منها تراث زاخر يشهد بشغف العرب بالعلم وولوعهم بالأدب ، ثم عملت عوامل الفساد السياسية والاجتماعية عملها ، فاضطرب المجتمع ، وجمدت الأفكار ، ودخل الأدب فى طور تدهوره الطويل .

فخرى أبو السعود

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

صلة الحديث (١)

أراد متشنيكوف أن يفسر حصانة الانسان من الأمراض فنسبها الى كريات دمه البيضاء ، وأسمى هذه الكريات بالفاجوسات ومعناها (الملتهمة) لأنها تلتهم المكروب الداخل فى الدم فتهضمه وتعدمه . فالحصين من الناس من قويت فاجوساته على المكروب الغازى ، والقابل للعدوى منهم هو الذى تضعف فاجوساته من المكروب فتنهزم أمامه . وقاد متشنيكوف الدفاع عن النظرية الفاجوسية فى باريس ، وقاد الألمان مدفوعين بالعداء السياسى للفرنسيين حركة منظمة ضد هذه النظرية . وعزوا حصانة الناس الى بعض خصائص فى مصل دمائهم . وبالغ متشنيكوف فى كراهة الألمان فلم يطق أن يسمع من أحد أن لمصل الدم شأناً فى حصانة الانسان أصلا

الحصانة واليهودى الأفاق

ولم يكن المعمل الذى استقله متشنيكوف فى معهد بستور معملا فحسب ، فقد كان فيه من الألوان ومقتضيات الفن ما فى مشغل رسام Studio ، وكان فيه من أسباب التفريج والتسلى ما فى مهرجان لهو منصوب بقرية ، وكان فيه من الحمية والحرارة واللذة القوية ما يجده المشاهد فى سرك(٢) circus كثير الشعاب رحب الجناب ، فلا تعجب بعد ذلك إذا علمت أن الشباب من أطباء أوربا قصدوه من كل ركن فيها يطلبون صيادة المكروب عنده ؛ أما عقولهم فانطاعت عفوا لهذا الباحث الكبير ، وقد كان كذلك منوّماً مغناطيسياً خطيراً ، وأما أصابعهم فقد سبقتهم الى إجراء عشرات الألوف من التجارب التى انطلقت من رأس أستاذهم حثيثة كما تنطلق الصواريخ فى الألعاب النارية من أصولها المتفرقعة

كأنى بك تسمعه ينادى : « ياسيد سلتيكوف ! هذا تلميذ للأستاذ بفيفار الألمانى يقول إن مصل الخنزير الغينى يستطيع أن يحيى خنازير أخرى غينية من الموت بكوليرا الخنازير . فهل لك أن تتفضل باجراء تجربة تمتحن بها هذه الدعوى ؟ » فلايكاد يتلقى هذا العابد لسيده مشيئة متشنيكوف حتى يهرع الى تحقيقها ، وهو يعلم حق العلم أى تحقيق يراد — تحقيق أن هذا الأستاذ الألمانى إنما ادعى باطلا وقال خرفا . وكانت تعرض لمتشنيكوف مئات من تجارب دقيقة لا تصبر عليها أصابعه الملولة فيدفع بها الى بلاجو فستشنسكى Blagovestchensky أو الى هوجنشمت Hugenschmidt أو الى فجنر Wagner أو الى غرجيفسكى Gheorgiewski أو الى سفتشنكو Savtchenko الذى نسيه الناس الآن ، أو إذا كان هؤلاء مشغولين إذن فالى زوجته ألجا فقد كان يغريها بترك ماهى فيه من رسم الزيت أو تشكيل الصلصال لتقوم ببعض هذه التجارب ؛ وكانت جديرة بحل أعقد العقد . فى هذا المعمل كان مائة قلب ولكنها دقت معا ؛ وكان به مائة رأس ولكن بها فكرة واحدة ولها غاية واحدة : أن تكتب أنشودة شعرية حماسية كبرى عن تلك الكرات الصغيرة المكورة الشفافة الأفاقة التى تدور فى دمائنا تتشمم عن مكروبة عادية قاتلة ، فاذا وجدتها سبحت نحوها واخترقت جدران الأوعية الدموية اليها حيثما كانت ؛ فاذا لقيتها فالحرب العوان بينهما حتى يذهب السوء المنذر عن الجسم أو هى تموت دونه

وكانت المؤتمرات الطبية الكبرى فى تلك الأيام مؤتمرات صاخبة ثائرة ملؤها الحجاج فى أمر المكروب وأمر الحصانة ؛ وكان متشنيكوف يحضرها دائماً ؛ فقبيل اجتماع أحدها بأسابيع كنت ترى معمله لا يهدأ أبداً من كثرة ما تروح الأقدام وتجئ فيه ؛ وكنت تسمع متشنيكوف يصيح برجاله : « هيا ، هيا ، فلا مندوحة عن الاسراع حتى تتم كل التجارب التى نريدها لأثبات حجتى » . فيقوم الأعوان المخلصون العابدون باقتصاد ساعتين فساعتين من نومهم كل ليلة فى سبيل العمل ؛ ويشمر متشنيكوف نفسه عن ساعديه ، ويرفع محقنه بيمينه ويضرب به فى شتيت الحيوانات وعديدها ، يحضرها له مساعدوه حتى يتصبب العرق من جباههم . فمن صغار أنواع كبيرة من الخنافس Rhinoceros beetles إلى الضفادع الخضراء(١) إلى التماسيح ، إلى سميدرات مكسيكية عجيبة axolotls(٢) ، حتى لجروا الشباك فى قيعان البرك يطلبون سمك الفرخ perch والجدجون(٣) gudgeon . نعم يقوم بحاثنا الفيلسوف المجنون على

(١) انظر العدد ١٥٨ من الرسالة

(٢) ملعب متنقل غالبا يتضمن ألعابا بهلوانية يظهر فيها اللاعبون حذقا نادراً ومخاطرة بالأرواح كبيرة

(١) نوع من الضفدع تكثر سكناه فى الولايات المتحدة وكندا ظهره أخضر (٢) أنواع من العظاءات تعيش فى بحيرات المكسيك الجبلية (٣) كلاهما سمك يعيش فى الماء العذب

كل هذه الخلائق الهادئة المتطامنة التي لا تشكو ولا تتضرر فيطلق فيها المكروب من محاقنه وقد لمعت عيناه واحمر وجهه العريض فبات كالقط المتأجج من خلف لحيته ، وقد تلوث شاربه بما تناثر عليه من المكروبات بسبب انفعالاته النفسية وتلويحاته الشعرية . وكان يقول : « أنا إنما أكثر تجاربي هذا التكثير لأزيد نظريتي إثباتاً »

كان عقل متشنيكوف لا يفتأ يتخيل الخيالات عن الطبيعة ، ويبتدع القصص عن الكون ، ولكن من العجيب المدهش أن هذه الخيالات كثيراً ما تحققت عند التجربة ، وهذه القصص كثيراً ما ثبتت عند البحث والاستقصاء . صاح ألماني يقول : « ليس في نظرية الفاجوسات التي خلقها متشنيكوف شيء ذو بال أو خطر كبير ، فكل الناس يعلم أن المكروبات قد ترى داخل الفاجوسات ، ولكن هذه الفاجوسات الأفاقة لا تخفر الجسم ولا تدفع عنه سوءا ، وإنما هي قشاشة تأكل من الفضلات ما تلقى ، فهي إذا أكلت المكروبات فلا تأكل إلا الميت منها » . وكان المؤتمر اللندني لعام ١٨٩١ يزداد موعده اقترابا ، فصاح متشنيكوف يطلب خنازير غينية ، فلما جاءته حقنها فحصنها ببشلات تشبه بشلات الكوليرا كان اكتشفها صديقه القديم المنكود الدكتور (جماليه) ؛ وبعد أسبوع أو نحو أسبوع قام هذا الفيلسوف اللحياني [1] فحقن زريعة حية شريرة مخطرة من هذه البشلات في بطون الحيوانات الحصينة ، وأخذ في الساعات التي تلت يمتص من هذه البطون في فترات قصيرة قطرات من سائلها بواسطة أنبوبة دقيقة من الزجاج ، ثم يضع هذه القطرات تحت عدسة مجهره القذرة ، قذرَ قلةٍ أو قذر كثرة ، ليرى ما تصنع فاجوسات الحيوانات الحصينة ببشلات الدكتور جماليه . حدق في المجهر ليرى ، فرأى غاية مناه ! رأى هذه الفاجوسات المكورة الزاحفة المتثاقلة قد أكلت من هذه البشلات حتى امتلأت !

قال متشنيكوف : «والآن علي أن أثبت أن هذه المكروبات التي بداخل هذه الفاجوسات مكروبات لا تزال حية ترزق» . وقتل الخنزير الغيني وشق بطنه فانفتح ، فمص منه شيئاً من هلامه الرمادي ؛ وما كان هذا الهلام إلا خلاياه الأفاقة اجتمعت في البطن لحرب المكروب الداخل والتهامه . وبعد زمن قليل ماتت تلك الخلايا الأفاقة ، تلك الفاجوسات التي لا تحتمل الحياة خارج الجسم طويلاً ؛ ماتت فانشقت فخرجت منها تلك البشلات الحية التي كانت ابتلعتها وهي في بطن الخنزير . فلم يلبث متشنيكوف طويلاً حتى حقن هذه البشلات في خنازير غير حصينة فما أسرع ما قتلتها

وبهذه التجربة ، وبعشرات من تجارب بارعة من أمثالها ، أرغم متشنيكوف خصومه فاعترفوا له بأن الفاجوسات تلتقم المكروبات الخبيثة أحياناً . ولكن الذي يؤسف له أن متشنيكوف أضاع حياته وأنفق طاقة عقله الجبار في عمل تجارب قصد بها الدفاع عن فكرة حِوارية لا كشف أسرار الطبيعة . نعم لقد كانت تجاربه بديعة مألوفة ، وكثيراً ما كانت تلذ الفكر وتمتع الخيال ، ولكنها كانت مصطنعة اصطناعا ، وكانت ترمي بعيداً عن الغرض الأهم الأخطر وهو كشف السر في أننا حصينون .

كان له رأس يقدر على احتواء الكثير الشتيت من المعارف ، فما كان أجدرها أن تتجه بكل حولها وذخيرتها الى حل عقدة الحصانة ، فتفسر لنا كيف أن الطفل قد ينشأ في مباءة من السل ثم هو لا يجيئه ، بينما طفلة أخرى تنشأ على قواعد الصحة في عناية وحذر فلا تبلغ سن العشرين حتى تموت من السل . هذه هي أحجية الحصانة المستغلقة ، وهي الى اليوم أحجية مستغلقة . فانظر ما كان يصنع تجاهها متشنيكوف ؟ كان يقول : لا شك أن الفاجوسات في هذه الحالة لا تعمل عملها ، فهي لا شك لأمرٍ ما تعطلت » ، ثم هو يهرع الى المعمل ليدهش خصيمه بإثبات أن فاجوسات التماسيح تأكل بشلات حمى التيفود . وما للتماسيح وللتيفود وهو لا يصيبها أبداً !

وأخلص له مساعدوه في العمل إخلاصاً نادراً عجيباً ، فأذنوا له فأطعمهم بشلات حية خبيثة من بشلات الكوليرا ليثبت أن الدم لا دخل له في حصانتنا منها . وبلع البشلاتِ فيمن بلع شابةٌ من تلك الأوانس الجميلات اللاتي كان يسترشد بوجوههن ويستوحي من فتنتهن ، ومضت سنوات أغرم فيها باللعب بأرواح أعوانه البحاث وهم عباده الطائعون ، وأقر بأنه إنما كان جنوناً ذلك الاغرام . وليس شيء يعذره من هذا الاغرام ويصفح عنه هذا الاجرام إلا أنه هو نفسه لم يتأخر خطوة عن مسايرتهم بالمخاطرة بحياته ، بل لقد بلع هو نفسه من أنابيب البشلات أكثر مما بلعه أيهم منها ؛ وفي أثناء هذا التلاعب

(١) العظيم اللحية

بالنار مرض أحد أعوانه مرضاً شديداً وظهرت عليه أعراض الكوليرا الأسيوية الصميمة ، فندم متشنيكوف ندامة كبرى ، وكان يقول فى وجيعته وأساه : « أى چوبى ! ليس لى بعد موتك حياة » ، فلما سمعت ألجا ذلك منه اتخذت حيطتها فلزمت زوجها الشهير ليلَ نهارَ خشيةَ أن يعاوده خاطر انتحاره القديم ؛ وكثيراً ما كان جاءه ولكنه لم يثمر ثماره أبداً . وفى ختام هذه التجارب الغريبة ، أخذ من دم الناجين من أعوانه فحقنه فى دم خنازير غينية ، ثم حقن هذه الخنازير بزريعات من بشلات كوليرا حادة ، فماتت هذه الخنازير ولم تنفعها دماء هؤلاء الرجال شيئاً . فاغتبط بهذا الفلاح ، وكان يكره أشد الكره أن يكون للدم خطر فى هذا أبداً ، وكتب : « إن كوليرا الانسان مَثَل آخر من أمثلة الأمراض التى لا يمكن أن يُعزى سبب الشفاء منها لمناعة الدم أصلاً »

وقد يكون من تلاميذه تلميذ وهبه الله مقداراً غير عادى من استقلال الرأى وحرية الفكر ، فيقع فى أبحاثه على خاصة عجيبة من خواص الدم ، فيأتى إلى أستاذه يهمس فى أذنه بالذى اكتشف ، فاذا بالاستاذ تطول قامته ، وترتفع هامته ، وينتفخ صدره زهواً وكبراً كأنه موسى الكليم يهبط جبل الطور إلى الوادى ؛ وإذا به يأمر بهذا الخارج الثائر الزنديق الذى لا يؤمن بنظريته أن تُحرق جثته ، ثم هو يقوم على الجثة يفرغ ماء عينيه بكاء وقد عزّه العزاء وافتقد فيه الصبر والسلوان . لم يكن معمله بالمكان الهانىء الوادع السعيد للبحّاث الذين يطلبون الحقيقة الصرف . ومع هذا فالى متشنيكوف يعزى بعض الفضل فى اكتشاف طائفة من أعجب خواص الدم ، ذلك لكثرة التجارب التى أجريت فى معمله ولاختلاف عدد كبير من بحّاث متحمسين عليه فيه . مثال ذلك الباحث الشهير برديه Bordet جاء يعمل مع الأستاذ ، والأستاذ فى أكبر مجده وأذيع صيته . وكان برديه ابن معلم قرية صوني Soignies ببلجيكا ؛ وكان حيياً لا يُؤبه لمظهره ؛ وكانت به عادات من إهمال وقلة مبالاة ؛ وكانت له عينان زرقاوان كالماء ذاهلتان لا تبصران شيئاً مما تقعان عليه ، ولكنهما أبصرتا ما لم يبصره غيره من البحاث . بدأ عمله فى معمل متشنيكوف ، وأخذ يبحث فى الدم يستجلى خفاياه ، فاستجلى أموراً جليلة منه ، وذلك فى ظل لحية متشنيكوف وعلى صدى صيحته الصارخة بالفاجوسات وللفاجوسات . ووضع هذا البلجيكى أسس تلك الاختبارات العجيبة الدقيقة التى يختبر بها الدم اليوم فى جنايات القتل ليُعرَف أهو من إنسان أو حيوان . وفى هذا المعمل قام بأبحاث أدّت بعد سنوات إلى اختبار الدم الشهير الذى به يُكشَف عن وجود الزُّهرى فى دم الانسان ، ذلك الاختبار المعروف اليوم باختبار فَسرْمَنْ Wassermann

على أن برديه لم يَسلم من غضبات متشنيكوف أحياناً كثيرة ، ولكن الأستاذ كان كثير العُجْب بتلميذه ، وكان كلما وجد برديه فى الدم شيئاً يضر بسمعة المكروبات — ومع هذا قد ينفع فى تحصين الناس منها — أغمض متشنيكوف عينه على القذى كارهاً وقام يغرى نفسه باجراء تجارب لا بأس بها تثبت أن هذا الشىء الذى وجده برديه فى الدم إنما جاء أصلاً من الفاجوسات . ولم يُقم برديه فى معمل متشنيكوف طويلا . . . .

واقترب ختام القرن التاسع عشر ، وتحوّل بحث المكروبات ، فبعد أن كان يَنفُر اليه كل مخاطر مغامر ، أخذت تعالجه طائفة من شباب الأطباء انصرفوا اليه فى هدوء وسلام وتؤدة وتبصر واحترفوه احترافاً ، فلم يجمحوا فيه بالخيال ، ولم يتنبأوا فيه بالغيب . عندئذ تحوّل متشنيكوف كذلك بعض التحوّل عن غضباته المرة وإساءاته المنكرة إلى كل من لم يكن يرى الأمور بعينه . ونال الشارات وحظِىَ بالمكافآت المالية . ودخل يوماً مؤتمراً دخول الملك المستعظم فحظى فيه حتى بتصفيق الألمان واحترامهم . وكان عندئذ آلاف من البحّاث قد لحوا آلافا من الفاجوسات تبتلع آلافا من المكروبات . ولو أن هذه لم تفسر لنا سبب الحصانة — لم تفسر لنا كيف أن رجلاً تصيب صدره النيومونيا فتقتله ، بينا رجل آخر تصيبه فتعتريه نوبة من عرق صبيب يُشفى عقبها — إلا أنه مع ذلك ثبت يقيناً أن الفاجوسات تأكل مكروب النيومنيا أحياناً وتذهب به وبشره . وهذا الثبوت لا شك يرجع فضله إلى متشنيكوف بصرف النظر عن فساد حججه وضيق صدره وقلة تسامحه وعناده . ولا شك كذلك فى أن هذا ثبوت لحقيقة علمية كبرى ليس بمستغرَب أن تؤدى إلى تخفيف آلام البشرية لو أن القدر ساق إلى هذا العالم البائس عبقرياً حلاّماً حذّاقاً للتجربة يفضح لنا السر فى أن الفاجوسات تأكل المكروبات أحياناً ثم هى تَعَفّ عنها أحياناً ، أو لعله فوق ذلك يغريها بأكلها دائماً أبداً

(يتبع) أحمد زكى

ميــــلاد . . . !

للأديب محمد طه الحاجرى

لم يكد الفجر يستفيض من وراء الأفق ، كما يستفيض الأمل الباسم من وراء الضلوع ، حتى استيقظ أهل ذلك البيت الصغير من إغفاءتهم ، ونفضوا عنهم بقايا أحلامهم ، واستقبلوا نور الفجر الساحر فأشرقت به قلوبهم ، وانبسطت له وجوههم ، ثم لم يلبثوا حتى كانوا يحفون بفتاة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، تئن أنيناً خافتاً لا يكاد يتجاوز نطاق صدرها ، وقد نطقت حركاتها وأسارير وجهها بما يعتاج فى أحشائها من ألم ، وما تبذله لقاءه من جهد ؛ فكانت تنحنى إلى أمامها — من ذلك الألم الممض — فتعتمد على يديها ، ثم ترفع كفها لتخفى دموعاً تترقرق فى عينيها ، والسيدتان الجالستان إلى سريرها تحاولان التسرية عنها ، وتخفيفَ همِّها ، وطردَ الأشباح المفزعة التى كانت تساور خيالها ، وتضاعف من آلامها ؛ ولم يمنعهما وقار السنّ من أن يصطنعا فى الحديث شيئاً من الفكاهة والمرح ، يبدد وجوم الموقف ... ويبعد شياطين الوساوس

أما ذلك الرجل الفاضل الذى كان ينظر اليها ، وإن وجهه ليعبر عن شتى العواطف من الألم والعطف والاشفاق والرجاء ، فانه لم يلبث أن غلبته عواطفه ، فقام من مكانه ، وذهب إلى غرفة أخرى ، وأخذ يدعو الله ويضرع اليه أن يكون فى عون هذه السكينة التى تعانى — للمرة الأولى فى حياتها — ما تعانيه كل امرأة مثلها خلقت لتكون وسيلة امتداد النوع الانسانى

تُرى ماذا كان يجول فى خاطر ذلك الرجل الذى لبث زماناً لا يحس بعاطفة الأبوة إلاّ حنيناً اليها ، ورغبة قوية حافزة فى الاشتمال عليها ، وها هو ذا الآن يوشك أن يكون أباً كما صار أنداده من قبل ، وها هى ذى رجولته توشك أن تستوى وتأخذ كمالها بهذا القادم المنتظر ؟ ؟

سبحانك اللهم ! جعلت فى الأيثار كمال الرجولة ، فاتسمت الأثرة بالطفولة ، ثم جعلت الرجولة درجات بعضها فوق بعض : هذا زوج يكد لنفسه ولغيره ، وهذا أب يرى خير بنيه فوق خيره ، وهذا عميد أسرة يتولى أمرها ويكدح لمجدها وينافح من دونها ، وهذا زعيم أمة قد اضطلع بشؤونها ، وسهر على شجونها ، وباع ماله ونفسه فى سبيلها ، فبلغ الذروة فى الرجولة ، وأشرف على أقصى غايات الكمال الانسانى

أيقولون إن الانسان أنانىّ بطبعه ؟ فما الذى يدفع بالرجل الكامل لأن يكون زوجا يشرك امرأته فى أسباب حياته ، وأبا يخلط بين غيره وذاته ، وقائداً يضحى بنفسه فى سبيل أمته ، ومصلحا ينير لغيره فيطفىء من ذبالته ؟ إنما هى غريزة التكمل ، فاذا ضعفت تلك الغريزة ، فرغب الشبان عن الزيجة ، وانصرفوا عن بناء الجماعة ، واحتفلوا بخيرهم الذاتى وحده ، فقد رجعوا على أعقابهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، وانعكست سنة الخليقة فيهم ، فعادوا أطفالاً ، وكان من الطبيعى أن يكونوا رجالا

تُرى ماذا كان يجول فى نفس ذلك الشاب الذى نيّف على الثلاثين ، وقد جلس يتمتم بالدعاء ، ويرفع يديه إلى السماء ، فى زى شرقى أنيق ، ومحيا مشرق وضىء ، لولا ما يرتسم عليه من خطوط فيها من معنى الألم قسط موفور ؟

إنما هى مشاعر مبهمة لا تكاد تبين أو تتعين ، مترادفة ينسخ لاحقها سابقها ، مختلطة بين الماضى والحاضر والمستقبل ، لا تكاد تستقر على عهد من العهود الماضية ، حتى تحط على آخر فى حدود الغيب المحجوب ؛ ولا يكاد يألم لما تعانيه زوجه من ألم المخاض ، حتى تنسخ هذه الغاشية موجة من النور البهى الساطع المنتشر من عالم الغيب على نفسه الحائرة بين عالم الغيب وعالم الشهود

أما تلك المرأة الصغيرة فلعل خواطرها كانت حزينة مبتئسة ، أكثر منها فرحة مستبشرة ، ملتفتة إلى الوراء أكثر من اتجاهها إلى الأمام ؛ تنظر إلى الماضى الماثل أمام قلبها ، فتغرورق عيناها بالدموع ، فتحاول إخفاءها عمن جلس حولها ؛ ثم يعروها الألم فتئن وتتوجع وتنحنى انحناءة تستل كل ما فى النفس من معانى الاشفاق والعطف والرحمة ، وتبعث فى القلب كل مشاعر الأسى والوجيعة ؛ ثم تنظر حولها فتعود بها الذاكرة إلى الفقيدة العزيزة التى فقدتها منذ بضعة من الشهور قليلة ، فلا تزال صورتها تلقاءها ، متألقة بنور الحب ، محفوفة بمعانى الدموع . . . أمها التى لم تكن تشعر بعطف غير عطفها ، ولم يكن لها من القلوب

غير قلبها ، ولم تكن تدرى من صور الحب غير صورة حبها . كانت تلك الفتاة وحيدتها ، فكانت تستأثر بعطفها وحنانها . ثم ضرب القدر ضربته الصارمة القاضية ، وانتزعها انتزاعة عنيفة قاسية ، حين كانت ترجو وترقب أن تستمتع بحفيدها وامتداد وجودها

إيه يا روح الأم المرفرفة على سرير فتاتها ! امسحى على قلب هذه المسكينة بيدك الروحية الطاهرة ، وانشرى عليها من ذلك الضوء الذى يغمر ذاتك المجردة ، وابعثى فى قلبها الطمأنينة التى تسود عالم الروح الأسمى ، وانقليه فى شفقة الأم الرحيمة ، ورقة الروح الكريمة ، من الماضى القريب الزاخر بمعانى الأحزان والآلام ، إلى المستقبل الزاهر بورود الآمال والأحلام . . !

***

مضى الزوج الى مصلاه ، يلتمس الروح والطمأنينة فى جوار ربه ، ويعوذ به من القلق الذى جعل يعبث بقلبه ، ويستروح نفحات الملأ الأعلى التى تتأرج فيه . ثم عاد الى بيته فاذا هو يتلألأ بمعانى الفرح الطروب ، كأن الحياة قد أفرغت فى هذه البقعة الصغيرة كل ما تدخره من السرور والبهجة . لشتان ما بين هذه الساعة والتى قبلها فى رأى قلبه ! فقد امتلأ الفراغ الذى كان يشعر به بين جنبيه ، والذى كان يشعره أن حياته فارغة لا قيمة لها ، والذى كان لا يملؤه إلا الهم والابتئاس حين يرى رجلاً يداعب طفله ويدلله ، فتثور غريزته المحرومة ، وتضطرب فى صدره أيما اضطراب . . . لقد ابتدأ منذ اليوم حياة الأبوة المجيدة والرجولة الصحيحة ، وأصبح يشعر لوجوده بكيانين : أما أحدهما فقد بلغ الذروة ، وأما الثانى فلا يزال فى سفح الحياة يحبو ويتشبث ... فأى سعادة تغمر قلبه ! وأى صورة من الفرح والغبطة ترتسم على وجهه ! لقد ظفر اليوم لنفسه بالحياة فى أنضر صورها ، فما كهذا اليوم فى حياته كلها

وأما الأم فقد تنزلت عليها رحمة ربها ، فنسخت تلك المعانى الحزينة من قلبها ، وأقبلت عليها الحياة الجديدة المنبعثة من وليدها ، فسحت كل ما أبقى الموت من أثر فى نفسها ، وقد استغرقت كل عواطفها فى تلك الفلذة المشتقة منها

***

إيه أيها الوليد الملقى فى مهده فى جو من الغموض والابهام وفى هالة من الحب والرعاية والاعظام ! ما هو ذلك الشأن الذى جعلك مناط الأمل ومعقد الرجاء ، وقد تكون سبب الشقوة ومستقر العناء ؟ وما هى تلك الخطورة التى جعلت مقدمك بين التهليل والتكبير ، وجعلت استهلالك مقروناً بهتاف الفرح وصوت البشير ؟ وما أنت فى ذلك الوجود الزاخر إلا ذرة أو أقل من ذرة فى عباب المحيط الواسع ! ألأنك تمثل الحياة فى شتى أشكالها ؟ ألأنك تحمل بين جنبيك ميراث الانسانية جميعها ؟ ألأنك الوحدة التى يقوم عليها بناء الكون بما يضم من أشتات ويجمع من مفارقات ؟ قد يكون كل ذلك صحيحاً لا ريب فيه . ولكن سنن الوجود ونواميس الخليقة قد طبعت على التحتيم الذى لا مفر منه ، والجبر الذى لا اختيار فيه ، حتى ليعد من العبث الذى يهيم به العقل أحياناً أن يحاول تعليلها ، أو يجتهد فى تأويلها . فأنت أنت كما أراد الله أن تكون ؛ وهذا الاحتفال الذى يحف موكبك العظيم هو جزء من النواميس التى قدرها الله لنظام الوجود ، ولا مبدل لكلمات الله .

محمد طه الحاجرى

الفـــخر
فى شعر أبى الطيب
للأستاذ طه الراوى
عضو المجمع العلمى العربى

نريد أن نتحدث عن أبى الطيب ، ولكن هل غادر المتحدثون عنه من متردم ؟ ماذا نقول فى شاعر ملأ الدنيا وشغل الناس من متقدمين ومتأخرين ، بله المعاصرين ، من بين مادح وقادح ، وناقد وشارح ، حتى كان من ازدحام أولئك الأعلام حول هذا المنهل أن ازدهرت خزانة الأدب بعشرات الأسفار ، فهل من جديد نقوله ؟ هذا ما جال فى خاطرى عند ما تلقيت دعوة لجنة المهرجان المحترمة

على أنه لابد من القول ، فلا بد من اختيار ناحية من نواحى شاعرنا والتحدث عنها ، فان وفقت إلى جديد فهو الهدف ، وإلا فقد أبلغت عذراً . لا خلاف فى أن أبرز نواحى أبى الطيب وأبرعها جمالاً وأروعها جلالاً هى العظمة ؛ وقد صورها لنا بشعره أبرع تصوير وأروعه ، وقد نجر فى ذلك ما شاء وشاءت عبقريته ، فليكن موضوعنا إذن : (الفخر فى شعر أبى الطيب)

والفخر فى شعر هذا الناقم الثائر جذوة من نفسه ونفحة من روحه ، بل هو ترجمان طموحه . أو قل هو ذوب نفسه الكبيرة ، تارة يتألف قولاً وطوراً يتمثل فعلاً

ومن ثم جاء هذا الضرب من شعر شاعرنا مطبوعاً بطابعه الخاص ، بعيداً من التكلف والتعسف ، بريئاً من كثير من العاهات التى علقت بغيره من شعر أبى الطيب ، ولا يدانيه فى ذلك إلا الوصف ، ووصف المعارك خاصة ، وكل مايتصل بالرجولة والبطولة

ويرى المخلفون الرعاديد أن الفخر ضرب من ضروب العجرفة الفارغة والجبروت الكاذب ، وتلك خديعة طباعهم الخاملة ، وسجية نفوسهم الخانعة المستخذية التى تستمرىء الهون ، وتقنع بالدون . أما النفوس المجبولة من طينة الشرف فتأبى إلا مساماة النجوم ومغالبة الخصوم ، ذلك لأن الله برأها حرة فلا تلين للذلة ، ولا تدين بالقلة ، والعربى مجبول على الأباء والأنفة ، مفطور على العزة وسمو الهمة والطموح إلى معالى الأمور

وبهذه السجايا أحرز ما أحرز فى ماضى الزمان من عظمة الشأن وبسطة السلطان

وقد افتخر سيد ولد آدم عليه السلام فى غير ما موقف ، وهو القائل فى بعض مواقفه الحربية :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وهذا داهية بنى حرب يقول : وضعت رجلى فى الركاب يوم صفين للهرب ، فتذكرت قول ابن الاطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى

فانثنيت عما أنا فى سبيله

ولعمرى ما أخذنا فى عصورنا المتأخرة إلا من ناحية تلك الفلسفة السقيمة المقيمة ، فلسفة الاستكانة والتماوت التى تسربت الينا من بثوق المغلوبين على أمرهم ، المفجوعين بحريتهم ، المصابين بعزتهم وأنفتهم ؛ ثم جاء الطامعون بنا فنفخوا فى نارها ، وضاعفوا من أضرارها ، إلى أن أصبحنا نخاف من كل شىء حتى من أنفسنا ، ونرى يومنا أسوأ من أمسنا

فاذا أردنا أن نعيد سيرة أولينا جذعة ، فعلينا أن نغذى نفوس ناشئتنا بكل ما من شأنه أن يغرس فيها الشمم والطموح الى معالى الأمور والترفع عن دناياها ، وإرخاص الحياة فى سبيل العز ، والاعتقاد بأن الحياة بغير الحرية ضرب من ضروب الموت الخفى ؛ والشعر الفاخر أو الفخر الشاعر من أجدى الأغذية النفسية وأنجع الأدوية الروحية

ودوحه الفخر فى شعر أبى الطيب كثيرة الأفنان ، باسقة الأغصان ؛ وموقفنا هذا المحدود بالدقائق أضيق من أن يتسع للاحاطة بجميع أطراف هذا الموضوع فلا بد من الاقتصار والاختصار . وليكن اقتصارنا على غصنين هما أكثر تلك الأغصان أزهاراً وأينعها ثماراً ، وهما إمامته الأدبية ، وأمنيته السياسية

نشأ أبو الطيب صباً بالمعالى متيماً بها ، لا يفارقه طيفها مُترئى أمامه وتأويباً على أثره . وتمثلت له أمنيته بالسيادة والملك فكان يبنى أن يقهر العتاة من جبابرة عصره ، ويديل للعزب من أولئك

الموالي الذين تسنموا العروش من طريق الختل والغدر

وإنما الناس بالملوك ولا تفلح عرب ملوكها عجم

بكل منصلت ما زال منتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم

أعلك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم

نبتت هذه الأمنية فى رأس أبى الطيب من يوم عرف نفسه ، وملكت عليه مشاعره واستبدت براحته ، ولم تزل تطوح به من بلد إلى بلد حتى لفظ نفسه وسكن رمسه

وكان لها فاتحةُ شعره وخاتمته . قيل له وهو فى المكتب ما أحسن هذه الوفرة ! فقال :

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة يَعُلها من كل وافى السبال

وقال من قصيدة هى آخر ما نظم ، وقد وجدت فى رحله بعد قتله :

سدكت بصرف الدهر طفلاً ويافعاً

فأفنيته عزماً ولم يُفننى صبرا

أريد من الأيام ما لا يريده سواى ولا يجرى بخاطره فكرا

وأسألها ما أستحق قضاءه وما أنا ممن رام حاجته قسرا

انظر كيف تبادرت هذه الأمنية فى نفسه حتى أصبح يراها من حقه الذى لا ينبغى أن يغالب عليه

ولى همة من رأى همتها النوى فتركبنى فى عزمها المركب الوعرا

تروق بنى الدنيا عجائبها ولى فؤاد ببيض الهند لا بيضها مغرى

ومن كان عزمى بين جنبيه حثه

وخيَّل طوا، الأرض فى عينه شبرا

صحبت ملوك الأرض مغتبطا بهم وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

ولما رأيت العبد للحر مالكا أبيت إباء الحر مسترزقاً حرا

إلى أن قال :

فان بلغت نفسى المنى فبعزمها وإلا فقد أبلغت فى حرصها عذرا

الملك هدف أبى الطيب ، ولكن المسالك اشتبهت عليه ؛ فتارة يسلك طريق البراعة فى اليراعة ، وطوراً يرى طريق السيف أهدى وأجدى ، وحيناً يرى أن المال هو الذى يجمع عليه الرجال ، وآناً يرى السبيل أن يتولى عملا لبعض الملوك ، ثم يجعله مركزا لحركته ونواة لمملكته

فهو فى هذه السبل إلى أن لقى مصرعه

وقد جرب الثورة الحمراء فى مقتبل عمره فأخفق ، وعاد ممتطياً صهوة البيان ، يغالب الأقران ويصارع أحداث الزمان ، وتغزوه الرزايا من كل مكان ، وهو معتصم بالصبر ثابت العزم!

كان شاعرنا قوى الثقة بمكانته البيانية منذ حداثته ، يقول فى صباه :

إن أكن مُعجباً فعُجْب عجيب

لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود

وقال :

أنا صخرة الوادى إذا ما زوحمت وإذا نطقت فأننى الجوزاء

وإذا خفيت على الغبى فعاذر ألاّ ترانى مقلة عمياء

ولما تكاثر حساده واحتشدوا له وأسمعوه من الهجاء قال :

أرى المتشاعرين غروا بذمى ومن ذا يحمل الداء العضالا

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقال لعلى بن أحمد الأنطاكى :

دعانى اليك العلم والحلم والحجا وهذا الكلام النظم والنائل النثر

وما قلت من شعر تكاد بيوته

إذا كتبت يبيض من نورها الحبر

كأن المعانى فى فصاحة لفظها نجوم الثريا أو خلائقك الغر

ويقول للقاضى أبى الفضل الأنطاكى :

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتاً ولكنى الهزبر الباسل

ما نال أهل الجاهلية كلهم شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

ويقول لأبى العشائر :

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ ـظ كلانا رب المعانى الدقاق

ونظر إلى من حوله من شعراء سيف الدولة وفيهم الصفوة من سحرة ذلك العصر فلم يعتبرهم شيئاً مذكورا :

خليلى إنى لا أرى غير شاعر فلِمْ منهم الدعوى ومنى القصائد

ويقول عن سيف الدولة :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق

وقد لحظ فى شعره عناصر الخلود فقال :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

على أن اعتداد شاعرنا بامامته فى البيان لم يشغل باله كثيراً ، إذ كان يقينه بهذه الأمامة أقوى من أن يحتاج إلى الجدال والنضال إلا حين يبخسه حقه بعض الشعراء ، أو يغفل عنه بعض الأمراء ، فينبه هذا ويجيب ذاك ؛ وإنما الشغل الشاغل لذهنه تلك الأمنية التى عقد بها فكره وحبس عليها جهده ، ومارس منها معشوقة خلابة جذابة ، ولكنها لا تلين بحال ، ولا تدين بوصال ؛ فأكثر من التغنى بها وهى لاهية عنه بالسود التنابيل :

سيصحب النصل منى مثل مضربه
وينجلى خبرى عن صِمَّة الصِّمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر   فالآن أقحم حتى لات مقتحم

***

إلى أى حين أنت فى زى محرم   وحتى متى فى شقوة والى كم
وإلا تمت تحت السيوف مكرماً   تمت وتلاق الذل غير مكرم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد
يرى القتل فى الهيجا جنى النحل فى الفم

أعجب الأدباء بامرئ القيس حيث يقرن فى شعره بين معاطاة الكؤوس ومشهد الحرب الضروس ؛ قالوا : وهذا غاية فى الشجاعة . أما شاعرنا فقد خلف امرأ القيس وراءه ، وقصر كل لذته على اصطدام الصفوف بالصفوف ومقارعة الحتوف بالحتوف . طلب إليه بعض أصحابه أن يشرب معه فقال :

ألذ من المدام الخندريس   وأحلى من معاطاة الكؤوس
معاطاة الصفائح والعوالى   وإقحامى خميساً فى خميس
فموتى فى الوغى عيشى لأنى   رأيت العيش فى أرب النفوس

وقال فى مثلها :

لأحبتى أن يملأوا   بالصافيات الأكوبا
وعليهم أن يبذلوا   وعلى ألا أشربا
حتى تكون الباترا   ت المسمعات فأشربا

وقال :

ألا حبذا قوم نداماهم القنا   يُسقونها رياً وساقيهم العزم

وكثيراً ما كان يفسح لهذا المطمع مجالاً فى صدور قصائده التى يمدح بها أمراء زمانه ، وبذلك يتنكب نهج الشعراء فى تصدير قصائدهم بالغزل ويتغزل هو بقدود الرماح وبيض الصفاح ، ويتغنى بالجلاد والكفاح ، فكأنه يقول لهم : لكم ليلا كم ولى ليلاى ولكل أن يتغزل بحبيبته . قال فى صدر قصيدة يمدح بها على بن أحمد الانطاكى :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر   وحيداً وما قولى كذا ومعى الصبر
وأشجع منى كل يوم سلامتى   وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر
تمرست بالآفات حتى تركتها   تقول أمات الموت أم ذعر الذعر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة   فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى   لك الهبوات السود والعسكر المجر

وفى صدر أخرى يمدح بها على بن أحمد المرى :

لا افتخار إلا لمن لا يضام   مدرك أو محارب لا ينام
أقراراً ألذ فوق شرار   ومراماً أبغى وظلمى يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد   والعراقان بالقنا والشام

ولم يفارقه هواه فى ليلاه بعد أن حل بكنف سيف الدولة ووجد فيه ذلك الملك الهمام ، ملء العين والسمع والفؤاد ، فهو ذا يقول :

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة   تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها   ضرب يجول الموت فى أجواله

أما فى مصر فقد صانع الأسود أولا ثم لما أعياه أمره نفث من سمه ما شاء ، وفارقه على تلك الحال المعلومة ، حتى ضمته الكوفة الى صدرها ، وهناك أملى قصيدتيه المشهورتين المقصورة والميمية ، وأودعهما ذلك اللهيب المتأجج ، فمن قوله فى الثانية :

ما زلت أضحك إبلى كلما نظرت   الى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها   ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامى قوائل لى   المجد للسيف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبداً بعد الكتاب به   فانما نحن للأسياف كالخدم

وهنا كرر إيمانه بهذه الحقيقة :

أسمعتنى ودوائى ما أمرت به   فان غفلت فدائى قلة الفهم

وهذا الايمان لم يمنع شاعرنا من ارتياد عضد الدولة وامتداحه ؛ فهل نتهمه بقلة الفهم على حد تعبيره هو ؟ لا . والذى يلوح لنا من منطق الحوادث أن شاعرنا رأى يده فارغة وأن الأقدام على الثورة يتطلب رجالاً ، ولا رجال فى مثل ظروف

شاعرنا إلا بالمـال ، فانطلق يلتمسه فى مواطنه ؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة ، ولـكن المنيـة حالت دون الأمنية ، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه

والمـال فى نظر أبى الطيب إنما هو وسيلة إلى غيره ، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفى طليعتهم أبو بكر الخوارزمى ذلك الشتامة الذى لم يسلم من أوضار لسانه إلا القليل

وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هـذه التهمة . أما أقواله فبرهان آخر :

وما حاجتى فى عسجد أستفيده ولـكنها فى مفخر استجده

غثاثة عيشى أن تغث كرامتى وليس بغث أن تغث المآكل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

بقى علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبى الطيب ؟ والجواب أن لنفسه المجبولة على التعالى أقوى نصيب فى تكوين هذه الفكرة وتغذيتها وتنميتها ، فقد خلق شاعرنا شجاع القلب ، أبى النفس ، حمى الأنف ، خصيب العقل ، ملتهب الفطنة ، فياض العاطفة ، صبا بمعالى الأمور زاهداً فى سفسافها

والعامل الآخر فى هذه الفكرة الأوضاع السياسية فى البلاد الاسلامية يومئذ ، فقد كانت هذه البلاد مسرحاً للفتن والدسائس ، ونهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختـل والغدر ، وقد ساهم فى ذلك حتى العبيد ، وحسبك بكافور على ذلك مثالاً فقد صار :

يدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب

فما بالك بفتى يعربى توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايا الرياسة ؟

ولـكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الغاية ، وحالت المنية دون الأمنية ؟ ولا ضير فقد سعى وليس عليه إدراك النجاح

على أن الجد الذى خانه فى ميدان السياسة ، حلق به فى سماء المجد الأدبى فأطلعه فيها شمساً تفيض بالنور على مر الدهور ؛ وإن أخطأته امارته السياسية فقد اعتزت به إمارته الأدبيـة ، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام ، أما هذه فباقية على مر الأيام

طه الرازى

المرأة المســـلمة

فى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الآنسة نعيمة المغربى

تطلع علينا مكتبة الأديب السيد حسام الدين القدسى بالقاهرة من حين الى آخر — بطائفـة صالحة من الـكتب العربية القديمة ، فينبش كنوزها الدفينة ، ويعرض جواهرها على أنظار عشاق الأدب ، وهواة لغة العرب ، وهى خدمة موفقة يضطلع بها الأديب المذكور ، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحميد مجهوده . من ذلك أنه باشر طبع كتاب (الضوء اللامع) فى تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الـكبير والمؤرخ النقادة شمس الدين السخاوى ؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوى وأكثرها شهرة ، يقع فى عـدة مجلدات ضخمة ، ظهر منها الى اليوم اثنا عشر جزءا . وقد خص المؤلف الجزء الثانى عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع . وكثيراً ما اقتصر على اسم المترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والاجازة التى تلقتها من شيوخها إن كان ثمة إجازة . ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحا كلما أوغل المطالع فى مطالعته وازداد للمؤلف صحبة فى تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره ، فهو يقع من وقت الى آخر على حوادث طريفة وفوائد ممتعة من أحوال نساء ذلك العهد

والـكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف ؛ وهو عدد كبير لا يسعه كتاب واحـد لو أن المؤلف توخى الاسهاب والاطالة ، ولـكنه لجأ الى الايجاز واهمال التفاصيل كما مر . ولا أعرف السبب الذى حدا بالمؤلف رحمه الله الى ذكر بعض نساء عصره ما دام انه لم يظفر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين . وكنت أرجع أحياناً الى كتاب (شذرات الذهب) بغية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لهن ، فأجد صاحب (الشذرات) أيضاً قد نحا منحى (صاحب الضوء) فى الاختصار والاقتصار على الاسم والوفاة . ولعل عذر

المؤلفين فى ذلك أن نساء عصرهم كن ذوات حياة مختصرة فتبع ذلك اختصار فى الترجمة ، وقد يكون السبب فى ترجمة هؤلاء فى (الضوء اللامع) أنهن يمتتن إلى مؤلفه بقرابة أو تلمذة أو جوار أو صداقة والد ؛ كما لمحنا ذلك فى تراجم كثيرات منهن . وما يدرينا أن بعضهن كن يكلفنه ترجمتهن حباً لتخليد ذكرهن ولو بالاقتصار على اسمهن ، وهذا كما يفعل بعض نساء زماننا ؛ (بل وبعض رجاله) إذ يرغبن الى رجال الصحافة أن يذكروهن فى صحفهن مباهاة بين أترابهن

وعلى كل فان هذا الجزء روض نسائى حافل بشتى أنواع الأزهار والرياحين ؛ تقرؤه بلذة وشغف ، إذ تتوفر لديك فيه النماذج المتنوعة عن المرأة المسلمة فى ذلك العهد الذى ساد أو بدأ يسود فيه الانحطاط . ولعل أبرز طابع فى (الضوء) هى الصراحة التى امتاز بها المؤلف فى معظم ما كتب وخلد من أثر ، وفى هذه الصراحة ما يشوق القارئ ويُغريه بالمطالعة ومرافقة المؤلف إلى النهاية

أتى المؤلف على طائفة كبيرة من نساء عصره وعرض علينا من أحوالهن وجوهاً مختلفة وأشكالاً متعددة ونفسيات متباينة وعقليات متنافرة . فمنهن المحدثة العالمة ، والحافظة البارعة ؛ ومنهن التقية الورعة والمحتسبة الصابرة ؛ ومنهن الحبشية السوداء والجركسية الحسناء ، ومنهن سليلة الملوك والسلاطين ؛ ومن أثر فيها كيد الحاسدين وسحر الساحرين . يذكرهن لنا كما عرفهن ووصلته أخبارهن . وكثيرات منهن عاصرن المؤلف وكن من المعجبات به المعتقدات بسعة فضله وغزارة علمه

ففى القرن التاسع للهجرة كانت المرأة المسلمة فى مصر والشام برغم مايعزى إليها من تأخر تتلقى عن الأئمة ويتلقون عنها . يجيزها العلماء وتجيزهن ؛ يناظرها الأدباء وتناظرهن ؛ تحفظ دواوين الشعر وتروى عن الشعراء ؛ ذات فكر ثاقب وقريحة نيرة ورغبة ملحة فى التحصيل ، لا يعتريها سأم ولا ملل فى طلب العلم والأخذ عن أساطينه ، وحفظ كتب الفقه والأدب ، ودواوين الشعر والمذاكرة فيها

ومما يلحظه المطالع أن معظم نجوم (الضوء) لمعن فى سماء مصر وتفيأن ظلال نخيلها وارتوين من ماء نيلها ؛ واغترفن من بحار علومها . وقد أحببت أن أحصى الشواعر فلم أظفر بسوى واحدة نظمت الشعر وكان بينها وبين المؤلف وسواه من العلماء مساجلة ومناظرة ، فهى تشبه من هذه الجهة شاعرة الشام فى القرن العاشر للهجرة السيدة عائشة الباعونية المدفونة فى صالحية دمشق . ومن هنا يتبين أن إقبال النساء على قرض الشعر فى ذلك العصر أعنى القرن التاسع كان قليلاً ، وكانت جل رغبتهن يومئذ فى تلقى علوم الحديث وروايته . وللبيئة — ولا ريب — أثر فى خلق هذا الميل فيهن وطبعهن بهذا الطابع

والشاعرة الوحيدة التى ذكرها (السخاوى) وترجمها ترجمة مفصلة هى (فاطمة) المشهورة بلقب (ستيتة) ابنة القاضى كمال الدين محمود بن شيرين الحنفى . قال المؤلف ما نصه :

(ولدت كما كتبته لى بخطها فى سادس المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة بالقاهرة ونشأت فتعلمت الكتابة وتزوجت الناصرى محمد بن الطلبغا ثم مات عنها فتزوجها العلاء على بن محمد ابن بيبرس حفيد ابن أخت الظاهر برقوق فاستولدها بيبرس ، ولاحظ لها فى ذلك مع براعتها فى النظم وحسن فهمها وقوة جنانها حتى كانت فريدة فيما اشتملت عليه . وقد حجت وجاورت وسكنت بجوارنا . ومما كتبت به الى بعد مجىء الخبر بموت أخوىَّ من نظمها :

قفا واسمعا منى حديث أحبتى ... فأوصاف معناهم عن الحسن جلت
أناس أطاعوا الله نارت قلوبهم ... وأبصرت الأشياء من غير نبأة
وقد كوشفوا عن كل ماأضمر الفتى ... ونارت قلوب منهم ببصيرة

ومنها :

أثابكم ربى وعظم أجركم ... على فقد أحباب وأحسن جيرة
كرام سموا علماً وحلماً وسؤددا ... وكنتم بهم فى غبطة ومسرة
قطعتم لذيذ العيش وصلاً بقربهم ... فوا أسفا عند الفراق وحسرة

ومما كتبه اليها المؤلف مجاوباً : (يا بديعة المعانى ، ورفيعة المبانى ، ومن فاقت الكثير من الرجال فضلاً عن النساء ، وراقت أبياتاً فحاكت الخنساء ؛ حفظ الله تعالى دينك ودنياك الخ)

ولها أشعار كثيرة وقصائد مطولة تدل على مبلغ اجتهادها فى تحصيل العلم والأدب . ولها أيضاً مطارحات شعرية مع بعض الأدباء رجحوها بها عليهم

ومما يستحسن ذكره ومرت الاشارة إليه أن المؤلف ذكر ترجمة موجزة لبعض قريباته : منهن جدته وعمته وابنة

شقيقه وأخته بالرضاع ووالدة امرأته التى أصيبت بالفالج وماتت عقب ذلك لدى سماعها خبراً مكذوباً عن وفاة المؤلف وابنتها زوجته وهما فى الحج . وكذلك جاريته (أبرك) الحبشية (التى كانت ضابطة لبيتهم قانعة صافية)

ومن يتأمل الكتاب وتراجم نسائه يلمح وقوع أمور فى ذلك العصر لا يزال يقع مثلها فى عصرنا الحاضر مع تقادم العهد وتطاول الزمن : فمن هذا القبيل :

(سعادات) ابنة الشيخ نور الدين البوشى . تزوجها البقاعى بعدموت والدها ونالها منه من الذل مالم يكن لها فى حساب ، بل نال طلبة أبيها من أجل مساعدتها ما شاء الله ، وكذا مس أخاها منه كل سوء فلم تحتمل وسألته الطلاق بعد ولادتها منه وأشهدت عليها أنها متى رامت نظر الولد أو أخذه كانت ملتزمة بخمسمائة دينار ، وسمحت بمفارقة ولدها ومهجتها مع مزيد حبها له) .

وكذلك (فاطمة) ابنة البدر الحنبلى تزوجها سبط العز الحنبلى عز الدين محمد بن الشهاب الجوجرى فلم يحصل التئام ففارقها بعد بذل له وإبراء)

وما كان المؤلف ليحجم عن انتقاد ما يجب انتقاده من أحوال مترجمات كتابه :

(إلف) ابنة القاضى علم الدين البلقينى ، تزوجها عبد القادر ابن الأحمدى ، ثم عبد القادر بن الرسام الحموى ، ثم أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، ثم فارقها واتصلت بابن عمها البدر أبى السعادات بعد موت زوجته أختها وأقبلت حينئذ على الخير وقررت فى مدرسة جدها عند قبره قرّاء فى كل يوم ، وقامت بأمر المدرسة وبتفقد الفقراء والأرامل ، وتزايد ذلك بعد موت ولدها حتى صارت فريدة فى أقربائها وأمثالها ، ورتبت قرّاء يقرأون عندها الحديث والتفسير) ، الى أن يقول : (ولا أحمد كثيرا من تصرفاتها خصوصاً فيا يتعلق بالأيتام)

وكنا نرغب لو أن المؤلف كان أكثر ايضاحا فيذكر لنا ما لم يعجبه من تصرفاتها وهى التقية الصالحة التى زخرت حياتها بعمل البر والاحسان

وقد قص علينا حادثة لعب فيها السحر دوره ، وذهب ضحيته نفسان بريئتان لا نعلم مبلغ التهمة المنسوبة اليهما من الصحة

(شيرين) الرومية ، هى أم الملك الناصر فرج بن برقوق ، ولما تسلطن ابنها صارت (خوند الكبرى) وسكنت قاعة العواميد بقلعة الجبل بعد أن تحولت منها (خوند ازد) زوجة سيدها ، ولم تلبث الا يسيرا حتى تعللت ولزمت الفراش ، وكثرت القالة بسببه ، واتهم جماعة بسحرها ، وظن ابنها أن ذلك من بعض الخوندات زوجات أبيه حسدا وبغضاً ، لأنها مع كونها بارعة الجمال سارت سيرة جميلة من الحشمة والرياسة والكرم مع الاتضاع الزائد والخير والدين . ولها معروف ومآثر حسنة ، جددت بمكة رباط الخوزى ووقفت عليه وقفاً وأصلحت ماكان تهدم منه . ماتت فى ذى الحجة سنة اثنتين وثمانمائة ودفنت بالمدرسة البرقوقية رحمها الله . ذكرها شيخنا فى (إنبائه) باختصار وقال : «كانت كثيرة المعروف والبر» . زاد العينى : (واتهمت جارية بسحرها فضربت حتى اتهمت نصرانياً كاتباً فعوقب فلم يقر فحبس حتى مات هو والجارية)

وما زال هذا الضعف الخُلقى فى الخوف من السحر والاعتقاد به سائداً إلى اليوم فى الأقطار العربية على اختلاف بينها فى درجة ذلك ، وحوادث ملوك الجان ، ما زالت ترن فى الآذان

والكتاب مفيد لا تمل قراءته ولا تسأم صحبته . فهو كالبستان فيه من كل فاكهة زوجان ، وما أحوجنا إلى مطالعة أمثال هذه الكتب التى ترينا صورة واضحة جلية عن حياة نساء تلك العصور وتطلعنا على درجة ثقافتهن ، وطريقة تعلمهن . والكتب فى تراجم النساء مما تركه لنا السلف قليلة جداً وهذا منها ، ولا تنس الجزء الثامن من طبقات ابن سعد الخاص بالصحابيات رضوان الله عليهن

(دمشق) نعيمة المغربى

نزهات فى الخريف

للكاتب الفرنسى جوستاف دروز

ترجمة السيد حسين رفعت

اطّلعت على الخريف فى حقوله الوسيعة، وعواصفه المريعة وتنهداته الذاهبة فى الفضاء، وأوراقه الذابلة الصفراء، وهى تترنح بين أنفاس الجو ونسمات الريح ؟؟

أعرفت مخارفه المبتلة، وشمسه المعتلة، وأشعتها الواهنة، الواهنة فى مثل بسمة العليل وضحكة المضنى ؟

أبصرت بضحضاحه الراكد ومائه الراقد فى جنبات الطريق ؟ أعرفت كل هذا ؟

إن كنت علمته فأنت غير خال من التعصب له، أو التحامل عليه، كما أحبه بعضهم فجنوا به، وكرهه آخرون فتطوعوا لسبه. أما أنا — علم الله — فهو أثير عندى، حبيب الىّ. والخريف واحد أثمن عنــدى من صيفين وأجل. فأنا أهيم بقطع اللهب الكبيرة، وأستريح بقربة الدفأة المتواضعة، وكلبى ممدد ساكن بين دزلكى المبلل الرطب، ومقعدى الدافئ الوثير

وكم يحلو لك التأمل فى سعير اللهب المضطرب، يلعق بأنيابه الدقيقة قطع الحديد العتيقة، ويضىء الظلمات النائية البعيدة

وتسمع زفيف الريح فى أهراء القمح، ويطرق أذنك صرير الأبواب ونباح الكلاب، وقد تمردت على سلاسلها الحديدية ومقاودها المعدنيــة. وتميز برغم دوى الغابة اللاصقة وهى تزمجر بظهرها القصوف صراخ الأغربة القاتم، وهى تصارع العاصفة وتنازل الرياح القاصفة

وتشاهد الوسمى يقرع ألواح الزجاج الصغيرة، فتفكر فى هؤلاء الذين هم فى الخارج وأنت تمدد رجليك نحو المصطلى

أجل أنا جد مفتون بالخريف، وصغيرى العزيز يهواه كما أهواه. وليس مظهر جماله ومبعث جلاله فى اجتماع العائلة حول الموقد، ينعمون بدفئه المثير، ولألائه الكثير، وإنما له أيضاً من عواصفه الهوج، ورياحه الداوية، وأوراقه الذاوية ما يحبب الى النفس المجازفة بين هذه الأنواء الصاخبة، وتلك الرياح الغاضبة

وكم من المرات ذهبنا كلانا نرود الحقول والمزارع، بين سفعات القر، وتلبدات السحب، وقد أحسنا الكساء، وأثقلنا الرداء، ولبسنا أحذيتنا الضخمة المتينة، فكنت أرتفق ساعده وآخذ عضده، ثم نسير دون اتجاه معين ولا غرض مقصود

وكان حينئذ لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولكنه يخب فى مشيته خبب الرجال ؛ فكنا نأخذ الطريق الضيقة المفروشة بالأعشاب النضرة السوداء، خلال أشجار الحور الرمادية التى كانت تسمح للعين بأن تخاص الى ما وراءها من الأفق، وتخترق ما دونها الى بسمات البرق، فتلمح فى قرارة البعد تحت السماء البنفسجية صفحة من العصائب الصفر الباردة، وتشاهد سقوف الأكواخ المتهدمة، ورؤوس المداخن المتداعية، تتصاعد منها سحب رهوة فى زرقة لطيفة كأن الريح تطاردها بعنف وتصاعدها بقسوة

وكان طفلى الصغير يطفر من المرح وقد أمسك بيده قبعته حــذراً من أن تطير، وكان يحدجنى بعينيه الزجاجتين تحت فيض الدامع وقد ضرج البرد وجنته، وفى مؤخر أنفه لؤلؤة صافية قد أشرفت على السقوط، وكان على ما به فرحاً مسروراً.

وكنا نقطع السهل الرطب وقد حفت جوانبــه بنمير النهر العذب، وزينت شواطئه بالقصب المتشابك، وعرائس النيل المتلاحمة وزهور النهر المتنوعة

وكنا نشاهد قطعاناً من البقر وقد غاصت حتى أعالى سوقها بين الأعشاب السامقة، وهى ترعى فى سكون واطمئنان، وفى حفرة صغيرة عنــد جذور شجرة من الحور تجثم طفلتان متناظرتان فى جلستهما فى ظل ممطف كبير، وقد لفهما إليــه وجذبهما عليه ؛ وهما ترعيان رعيلهما والرجلان نصف عاريتين فى الحذاء الممزق، والوجهان المرتجفان قد برزا من واقية المطر

وكان يقتطع علينا سيرنا المجد — فى الفينة بعد الفينــة — غدران واسعة قد عكست عليها صفحة السماء الخافتة، فكنا نتريث برهة على ضفاف هــذه البحيرات، وقد داعبت صفحتها ريح الشمال ونشاهد الأوراق الطافية وهى تساقط من أعالى الأشجار، وتسبح فى مهاوى الريح، وتثوى على وجه المستنقع، فأحمل طفلى الحبيب بين ذراعى وبجوز العــدوة الأخرى فنشاهد فى أطراف الحقول السمراء الخــاوية المحراث المقلوب، والوتد المنصوب، وعسالج الكرم المعراة قد امتدت على الأرض، والحمائل الصلبة الرطبة قد تجمعت أكواماً، وتكدست أقساماً

(حلب) حسين رفعت

المجـــاهد

للأستاذ عبد الحليم عباس

هات لى عتادى

فقد انتهت المعركة بينى وبين نفسى . هى تريدنى أن أقرّ ، وأريدها تحيا ساعةً من نهار فى جحيم المعركة ؛ وهى تريدنى أن أعيش فى الحياة ، وأريدها أن تسعد مع الموت

ها هو ذا الظلم مستعلياً أبداً ، كشأنه فى كل عصر ؛ لا أزعم أنى سأمحقه ، فقصارى الجهد أن أضع من جمجمتى حجرا فى الزاوية

هات لى عتادى

فما قيمة العمر يمضى ، وصليل القيد يصك سمعى ، ورؤية الظلم تُعشى نواظرى ... وما الحياة إن خلت من جمال الحق وعظمة الحرية ، إلا جبٌ منتن أ كبرنا فيه حشرة

هات لى عتادى

فلو عرف الناس لذة الحياة لقدّسوا الموت ، ولو ذاقوا حلاوة الايمان بالحق لدلفوا طُعمةً للنار ... وما خير عيشٍ يرين عليه الظلم ، وما لذةُ حياةٍ كل ما فيها متعة للظالمين ؟

هات لى عتادى

فلست أرهب موتاً يتساوى فيـــه الشقىُّ مع السعيد ، والراسف بالقيد مع الذى قيّده ، فرب جفنٍ ما رقأت دموعه ، ورب قلبٍ ما التأمت كلومه ، وجد له فى الموت وفى ظل القبر برد الراحة وهناوة العزاء

هات لى عتادى

وتعالى انظرى عزة الحق الأعزل ، واستخذاء البـاطل المسلح ... ها هما يتلاحمان ... فلمن الغلبـة ؟ أللباطل فقديماً غَلَب ، أم للحق فتلك ومضات فى حلوكة التاريخ ؟

منذ ساعة فتحَ الحق عينى ، وأنار الايمان قلبى ، فرأيت مواكب الأحيـاء على حقيقتها سائرة تتململ ولا تشكو ، وتجرع الغصة ولا تئن ، ورأيت الحقَّ فيما بينها مهيض الجناح ، مشنوءا حامله ، فعلمت أن من يعرف الحق ويؤمن به كل عمره ، مهما طال — ساعةً من نهار

منذ ساعة فتحَ الحق عينى ، فرأيت الانسانية ، ترجع إلى الوراء فعلمت أنه إن لم يصدها الايمان ، وتلتقى بها القوة المؤمنة ، فغير بعيدٍ ذلك اليوم الذى تحتفل به لأ كل لحم البشر !

وسار المجاهد ، رافع الرأس ، منتصب القامة ، يتلألأ على وجهه نور اليقين ، ويرف عليه روح من الحق ، قال وكأنه يخاطب نفسه :

ليست حقيقة الحياة فى الحياة ، وإنما هى فيما وراءها ؛ وليس الموت فى سبيل الحق غير اتحاد بهذه الحقيقة التى هى « الله »

للفضيلة دربٌ مختصر ، وهو أن تضع بدل كلمة « أنا » « نحن » ، والحجة القاطعة على أنك وضعت هذه بدل تلك أن تكتبها بدمك ، لتقيمها على حجارة رمسك

ليس العمر مجموعة أيام ، وإنما هو سجل أعمال ؛ فرب كهل لم يعش غير أيام ، ورب فـتًى لا تحصر عمره الأعوام ؛ فاذا لم يك من الموت بد ، فلِمْ لا تزد بعمرك ساعة جهاد ، لتطاول الحقب ولتدرج مع الأجيال ؟

يقولون إن الجهاد بابٌ من أبواب الجنـة ، أتدرى لـماذا ؟ لأن منْ يستعلى على الظلم ساعة فى ساحة الموت ، يشارك الحكمة الأزلية فى عملها ، وهى الجهاد لتثبيت الحق ، فى هذه الأرض . فمحالٌ أن ترضى الحكمة الخالدة فى غير نزوله فى كنفها ..... فى الجنة

***

وطويت الأرض تحت قدمى المجاهد ؛ فسار يلفُّ السهل بالحزن ، ويطوى البيد ، حتى شارف المعركة ، فوقف يتأملها برهة ، وقد فاضت عليه قدسية الجهاد ، والتمعت عيناه ببريق جميل ، هو بريق عظمة الموت ، فأخذ يتمتم :

إيه ياوطنى ! سماؤك وأرضك ، جبالك الشم ووهادك الفيح ، كلٌّ لهـا فى القلب موطن حرمةٍ وجلال . تمنيت أن لى ألف نفسٍ أفديك بها ، ولكنها نفسٌ واحدة ، فدونكها جهد المُقل

إيه يا وطنى ! مهبط الذكريات ، ومغدى الأمل ، غذتنى تربتك ، وبعثت فىَّ الحياة نسماتك ؛ ليس الظلم المخيم على ربوعك إلا جزءاً من الظلم المنيخ على العالم بكلكله ، وفى هذا بعض العزاء

إيه يا وطنى ! ها نحن أولاء تسارعنا لنجدتك ، لا نطلب خلوداً ، فاننا نعرف التاريخ لا يتسع صدره لذكر أمثالنا . ليس التاريخ إلا سير العظماء ، وهيهات أن تعرف الدنيا إلا ضرباً واحداً منهم ، أقواهم وأقدرهم على الفتك والظلم الذى زحفنا لصدامه ،

٣ - لمعات

مهداة إلى شاعر الاسلام وفيلسوفه محمد إقبال جواباً لكتابيه «أسرار خودى» و «رموز بى خودى»

للدكتور عبد الوهاب عزام

جال فى الظلماء صوت هاتف ... فظلام الليل منه راجف
مدّ فى الظلماء نوراً من نغم ... مُزِّقَتْ منه دياجير الظُّلَم
أشُعاعٌ فيه صوت صائح ... أم كلام منه نورٌ لائح ؟
أذِن الركب لهذا المنشد ... أطرب الناشدَ صوت المنشد [1]
سال فى القلب مسيل المطر ... ينبت الروح بسهب مُقفر
أو خرير الماء من نبع زلال ... بشّر الغارق فى بحر الرمال
رنّ فى نفسى رنين الجرس ... صاح فى أذنى فقيد مُبلِس
طوت البيداء عنه السابله ... وهداه الصوت شطر القافله
سبق القلبُ إليه الأذنا ... كبلال لصلاة أذّنا
دار قلبى شطر هذا المطربِ ... دورة الابرة شطر القطُب
« غنّنى يا مُنيتى لحن النشور ... أبركى يا ناقتى . تم السرور

(١) المنشد فى الشطر الأول منشد الشعر ، وفى الثانى الذى يدل على الضالة ، والناشد من ينشدها

ولسنا نطلب جاها أو متاعاً من متاع الفانية فاننا نعرف أن التكالب على الجاه فى ظل العبودية ، قتالٌ على الجيفة ، تقوم به طائفة نسميها الكلاب

ولكننا آثرنا الموت على الحياة ، لتزهو الحياة فى يوم ، وليسعد فيها هذا البشر اللاغب المتعب . . وثرنا لأننا علمنا أن الموت فى سبيل الحق حياةٌ رائعةٌ مديدة ... ودوت قنبلة أعقبتها طلقات ، فانتفض المجاهد وانحدر يهدر كالسيل الأتىّ ... إلى المعركة ، إلى الموت ! وما هى إلا ساعة حتى استشهد ، فقد كان يقاتل كالمجنون !

أين المجاهد ؟ !

أما جسمه (فكم مقلةٍ فى منقار طائر ، وكم خد عتيق ، وجبين رقيق ، قد فلق بعمد الحديد)

أما روحه فقد مشت كالنسيم ، توقظ الرمم ، وتدفع الأمم إلى الموت فى سبيل الحرية . . .

(شرق الأردن) عبد الحليم عباس

عُدت يا هيدى إلينا . مرحباً ... نعم مارَوّحتِ يا ريح الصبا» [1]
حبذا الصوت فمن هذا البشير ؟ ... ومن الهاتف بالقلب الكسير ؟
ومَن المسعد فى هذى الهموم ؟ ... ومن البارق فى هذى الغيوم ؟
ومن الهابط فى نور السنا ... هادياً فى الأرض جيلاً مظلما ؟
ومن الهادى إلى أرض الحبيب ... يعرف النهج وقد حار اللبيب ؟
ومن السائق شطر الحرَمِ ... وإلى الأصنام سير الأممِ ؟
ومَن القارىء فى بيت الصنم ... سورة الاخلاص فى هذا النغم ؟
ومن الحرّ الذى قد حطما ... فى قيود الأسر هذا الأدهما ؟
ومن الآبى على كل القيودْ ... ومن القاطع أغلال العبيد ؟
ومن الباعث فى ميْت الأمم ... ثورة العزة من هذى الهمم ؟
لاح كالغُرة فى هذا السواد ... بصٌّ كالجمرة فى هذا الرماد
جرف الناس أتِىٌّ مزبد ... ضل فيه المقتدى والمرشد
وطغى اللج عليه والتطم ... فرسا كالصخر فى هذا الخضم
عارض الموج على أغماره ... وطوى اللج على تياره
سبح اللج وبالشط استقر ... داعياً والناس غرقى فى النهر
يجرف التيار جسما جامداً ... تقذف اللجة قلباً خامداً
إن عزم الحر بحر مزبد ... جائش فى الدهر لا يتئد
هذه الأقدار فى تسيارها ... همم الأحرار فى أسفارها [2]
ومَن الشاعر يذكى القافيه ... فهى نور وهى نار حاميه ؟
تقشعر الأرض من أوزانه ... ويهيم النجم من ألحانه
وكأن الدهر صوت كُتبا ... قد حكاه الشعر صوتاً مطربا [3]
هو بالأشعار بحر فائض ... وهو للأزمان قلب نابض
حدّثته الأرض عن أخبارها ... وحبته الزهر من أسرارها
هو بالأمس خبير بغدِ ... وهو اليوم نجىُّ الأبد
كشف الله عن الغيب له ... فلسان الغيب يُملى قوله
عرف الشرق وراد المغربا ... فانجلى السرّ له . ما كُذبا
فرأى العلم سبيلاً للردى ... إذ رأى القلب خلياً من هدى
صوت « إقبال » على شط المزار ... أسمع اليقظان فى هذى الديار

(يتبع) عبد الوهاب عزام

(١) جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية فى الجزء الثانى من المثنوى
(٢) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر
(٣) يعنى أن الدهر أمام الشاعر كعلامات الموسيقى ، والشعر قراءة هذه العلامات

على الشاطىء

يا شراع ...!

بقلم أحمد فتحى مرسى

اتئد واجرِ فى العباب رُوَيداً   واسرِ فى اليمّ آمناً يا شراع
يلثم الماء صفحتيْك ، ويمضى   ويحييكَ فى الشروق الشعاع
قدمضيتَ الغداةَ تنسابُ فى الما   ء كما انساب فى السطورِ اليراع
وكأنّ المياهَ شقًّا مِقصٌّ . .   صاغهُ ماهرُ البنانِ صناع
فإذا جئت مُقبلاً فافتراقٌ   وإذا رُحت مُدبِراً فاجتماع

***

لهف نفسى عليك فى لُجّة اليمّ (م)   ولليمّ ثورةٌ ونزاع
حارَ ربانكَ القديرُ لديْه   أخفقت حيلةٌ ، وأقصر باع
وادلهمّ الفضاء واشتدت الري   ح فصُمّتْ لهولها الأسماع
وكأن المجدافَ إذ يضربُ الما   ء وللماء رجّةٌ واندفاع
طائرٌ فى شراكه يتلوّى   ولرجليه فى الشباك صراع

***

أيهذا الذى تولى بعيداً   لك منى تحيةٌ ووداع
يا عروسَ العباب قد زفّها الطيْ   رُ وراقت من حولها الأسجاع
وبناتُ الهديل فى البرّ تشدو   ردّدَ السهل شدوَها واليفاع
ومياهُ العبابِ ترقُصُ نشوى   فانخفاضٌ على المدى وارتفاع

***

ياغريباً عن الحمى ووحيداً   أترى أنت فى النوى ملتاع
أنت فى لجة الحياة مضاعٌ   وكذا كلُّنا لديها مُضاع
وخداعٌ هذى الحياة . فهل يُغْ   ريك من جانب الحياة الخداع

***

حولك اليمّ فى جلال وصمت   سيّد آمر ، ومَلْك مطاع
ثابت فى الخطى يروقك لينٌ   فى خطاهُ وهدأةٌ وادّاع
فاتئد واجرِ فى العباب رُويداً   واسر فى اليمّ آمناً يا شراع

أحمد فتحى مرسى

أغنية

فى سكون الليل فى صمت الهدوء   فى شعاع القمر المنسكب
زورق ضمّ ملاكين سرى   يتهادى فوق شطّ العرب
فوق غصن البان   رفرف القُمْرى
يُنْشِدُ الألحان   بالهوى العُذْرى
أنتِ عطر مجنّحٌ شفقى   طاف يذكو على الفضاء ويعبق
أنتِ معنى مقدس علوىّ   شعّ نوراً فى مهجتى يتألق
أنتِ حلم منور ذهبىّ   هلّلَ القلب مذ رآه وصفق
علمى الغيد التثنى   كيف بالله يكون
غرد الطيرُ فغنّى   حبذا منكِ اللحون

(البصرة)   ع . غ . ط

قبل النوى

للسيد إلياس قنصل

كفكفى هذه الدموع الغوالى   إنها بين أضلعى جمرات
أمر الدهر أن نلوّع بالبعـ   ـد ، وليست تردّه العبرات
واحفظيها لمن يعيش خليا   وأمانىُّ نفسه ذاويات
قد يكون الشقاء فى الحب لكن   حيث لا حبّ لا تكون حياة !

***

كفكفى هذه الدموعَ فلن يُدْ   رِكَ منا البعاد ما يتمنى
إن يكن حب غيرنا ثمراتٍ   تشتهى فى ابتدائه ، ثم تُجْنى
فهوانا عواطف عاليات   نفث الطهرُ بينها ألف معنى
والشعور الذى تغلغل فى القلـ   ـب وأمسى من نبضه ليس يفنى

***

كفكفى هذه الدموع الغوالى   إن لله مأرباً يخفيه
وليحلْ شوقنا الملح سروراً   بكؤوس من الرجا نسقيه
وليكن صبرُنا على البعد قربا   ناً إلى معبد الهوى نهديه
ليس يبغى عنادنا الدهر لكن   جوهر الحب أن نعذّب فيه !

(عاصمة الأرجنتين)   الياس قنصل

القصص

قصة مصرية

القبلة الأولى و ... الأخيرة !

للأستاذ دريني خشبة

[الحوار فى الأصل باللهجة المصرية]

كان ذلك فى مصحة . . . .

وكانت فتاة شاحبة ذات عينين كبيرتين شاعرتين ، تطل منهما نفس حزينة متألمة ، تارة تحلق فى السماء تدعو الله اللطيف وتصلى له ، وتارة تنظر إلى المصحة التى اجتمعت فيها أمراض وأحزان وأمانى ؛ وكانت تجلس فوق مقعد منفرد فى زاوية منعزلة فى الحديقة الصينية التى تكسبها التماثيل البوذية والظُّلات والرابية الكبيرة ومساقط المياه ذات الخرير جلالاً ورونقاً وهدوءاً يشبه موسيقى الأرواح الباكية التى ترفرف أبداً فى سماء تلك المصحة الرحيمة

وكانت الفتاة تسبل فوق رأسها شُفوفاً من الحرير البنفسجى تداعبه نسمات الحديقة كلما هبت رُخاءً فى ناحيتها ... ولكنها تركت السماء كلها ، بما تفيض به من رحمة ولطف ، واتجهت بكل روحها الى نافذة بعينها فى المصحة ، وراحت تحدق فيها تحديقاً شديداً ، ثم أخرجت من (شنطتها) منديلاً صغيراً وضعت فيه لآلئ غالية كانت أوشكت تنهمر من عينيها

وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، وكانت تصب ذهب أشعتها على نواصى التماثيل الرائعة ، ولكنها كانت تصب أكثر هذا الذهب على ناصية بوذا الأكبر كأنها تستهزئ به ، لأنه إله من حجر ! وكانت ألف فكرة تزدحم فى رأس «سهام» كلما تقشّعت الشمس قليلاً قليلاً عن رأس التمثال ، فتبتسم ابتسامة ساخرة ... وتخفى دمعة كبيرة فى منديلها الصغير

وأقبلت جارية «حبشية» فحيّت الفتاة ، وأشارت إليها سهام فجلست عند طرف المقعد المنفرد المصنوع من جريد النخل ...

— « سيدتى ! »

— « ... ؟ ... »

— « أرسلنى البك الكبير أناديك »

— « ولماذا عاد مبكراً هذا المساء ؟ »

— « لا أدرى ، وهو يقول إنه يود أن يشرب الشاى مع سهام هانم »

— « وإذا لم تكن لسهام رغبة فى الشاى ولا فى القيام من هنا ف ... »

— « سيدتى ! ألا ترحمين شبابك ؟ »

— « أرحم شبابى كيف يا مسعدة ؟ »

— « من هذا الذى أنت فيه ! »

— « وما ذا أنا فيه يا مسعدة ؟ »

— « الفكر المتصل والحزن الذى لا حد له ... »

— « أشكرك يا مسعدة . إذهبى فاعتذرى عنى للبك — أنا لم أعد أحب الشاى فى هذه الساعة »

— ولم فى هذه الساعة ؟ »

— « لأنها كانت أول شكواه من هذا المرض الخبيث ، ومن يدرى ، فربما كانت أول شكواى أنا أيضاً ... »

— « يا سيدتى ارحمى شبابك قلت لك . إنها أيام ويغادر المصحة سليما معافى ، ألست تثقين فى تأكيدات الدكتور ؟ »

— « الدكتور ؟ ... أنت طيبة القلب يا مسعدة ! أنت طيبة القلب جداً »

— « الدكتور يؤكد أن سيدى نادر بك يتماثل يومياً ، وسيتماثل للشفاء قريباً ، وأنا أرى أنك تتلفين صحتك بهذا اليأس

الذي يدمي قلبك ويجرح نفسك ويقرح عينيك ؟ سيدتي سهام هانم : ألا تسمعين نصيحتي ؟ »

— « وأي نصيحة يا مسعده ؟ »

— أنت شابة جميلة ، والمستقبل أمامك مشرق بسام ، والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدميـك و ... أوه ... لا أجرؤ أن أقول ... »

— بل قولي يامسعده ، قولي ... أنا شابة جميلة ... والمستقبل أمامي مشرق بسام ... والدنيا مقبلة تكاد تتمرغ تحت قدمي ... ... الله الله يا مسعدة ... ثم ما ذا ؟ »

— « سيدتي سهام ... إني أعتذر ! ! »

— « تعتذرين ! تعتذرين من أي شيء ! بل لا بد أن تقولي ألستِ (داده) يا مسعدة »

— « لا ... لا أجرؤ ... »

— « لا تجرئين على أي شيء يا مسعـدة ... إن لم تقولي فانك تحزنينني »

— « ولكن على شرط ... إن لم ترقك الفكرة فلا تضمريها لي »

— « لك هذا يا مسعدة »

— « ألا تستطيعين أن تصرفي قلبك عن نادر بك .. »

— « أهـذه نصيحتك أيتها العجوز ! إذهبي فلن أشرب شاياً قلت لك »

— « أ ... أ ... »

— « إذهبي ... إذهبي »

***

— « يامسعدة قلت لك لا شأن لك بسهام ونادر ، لقد كان يعبدها قبل مرضه . وكان يوشك أن يخطبها لولا وفاة والدته ... وهي أيضاً تحبه حباً يمتزج بكل قطرة من دمائها ، إنها تكاد تجن من أجله ... إنها لا تنام أبداً ، و ... »

— « وماذا يا عثمان ... »

— « وهي تتسرق كل ليلة إلى المصحة وتزوره ، وأخشى أن تكون أصيبت بمرضه ، لأني أسمعها تسعل كالمسلولين . . . مسكينة ... »

— « لا قدر الله يا شيخ . . . إنها حزينة فقط ، وأنا لا أدري لحزنها سبباً ، فألف شاب جميل غني يتمنون أن تصبح لأحدهم زوجة . . ولكنها تأبى إلا أن تسمع لقلبها .. قُتِل الحب ، إنه لا عقل له ! لقد كلمني اليوم عصام بك وألح علي في محاولة التأثير عليها ، وهو يضع كل ما يملك رهن تصرفها ، فماله هذا الشاب الوجيه ؟ ! صحة وثروة وأسرة ... وشباب ! »

***

— « يا ابنتي رفقاً بنفسك ، أقسم لك بالله وبشرفي أن الدكتور أكد لي اليوم أن لنادر أياماً قليلة جداً ويغادر المستشفى سليماً معافى ... »

— « سليماً معافى ... متمتعاً ... بكامل صحته . ، هنيه ... يارب ، سيغادر المستشفى إلى الأبد ... هذه هي الحقيقة ! »

— « أجل ، سيغادره لتعيشا معاً في نعيم إلى الأبد ! سهام ! »

— « بابا ... »

— « هلمي نجلس قليلاً في الحديقة ، هلمي يا ابنتي ، القمر جميل ، والنسيم رَخيّ ، و ... »

— « بابا ... »

— « سهام ! »

— « أنا لا أحب الحديقة ولا أحب القمر ... لنبق هنا ... الدنيا برد ! »

— « يا ابنتي لا تعبسي للدنيا هكذا ... »

— « الدنيا ؟ آه يا بابا ... سأعبس لها إلى أن يشاء الله ! »

— « لا حول ولا قوة إلا بالله ... سهام ، أنت تحرقين نفسك وتتلفين روحك في نار عاطفية كان ينبغي ألا تجعلي لها وزناً في رجاحة عقلك وسلامة تفكيرك ... لقد كنت أحاول أن أصارحك بحقيقة نادر ولكني كنت أخشى على قلبك الغض وشبابك الرطب أن تعصف بهما كلماتي ، مع أنها الخير لك ... سهام ! استيقظي يا ابنتي ! حقاً لقد أحبك نادر كما تحبينه ، وكنت أنا نفسي ألمس محبته لك وهو يكلمني من أجلك ، وعندما سلمني (السوار الماسي الجميل) الذي جمله تقدمة لزواجه منك ، كنت أشهد في عينيه دموعاً محبوسة تريد أن تنهمر ، عرفت منها أثر تحقيق الأحلام في نفوس الشباب — ولقد كنت أوشك أن

أرفض هذا الزواج أول الأمر ، لما كنت ألحظه فى صحة نادر من التدهور والتهدم ، لكنى قرأت حبه فى عينيك ، وشهدت حرارة روحه تتورد فى خديك ، فتألمت ، وفرحت ، وذكرت (المرحومة) والدتك وما كانت تتمناه لك من السعادة الأبدية ورخاء البال ، فوافقت ، وضاعف ألمى وفرحى أن رأيتك سعيدة به بقدر ما هو سعيد بك ، وهنا فقط ... غلطتى ... غلطتى التى لا يغفرها لى إلا أنى لم أكن أعرف أن تدهور صحة هذا الشاب النبيل هو أول هذا المرض الخبيث العضال ... سهام ! استجمعى قواك ! لا تجزعى هكذا ... إن ألف شاب جميل رقيق القلب وافر الغنى فى انتظارك ... وقد خاطبنى الكثيرون فعلا قبل أن يعترض طريق حظك ولدى نادر ... سهام ... تشجعى ! أنت صغيرة يافعة يا بُنيَّة ! نحن كلنا نرثى لشباب نادر ، وكنا نضرع إلى الله أن يشفيه ! ... و ...

— « بابا ... »

— « سهام ! »

— « ماذا تقول ؟ كنا نضرع إلى الله ! ... ماذا قال لك الدكتور اليوم ؟ »

— « هذا هو الذى كنت أخشى أن يكون ! ليهدأ قلبك يا بُنيَّتى ، وليستيقظ عقلك الساهى ... أريد ألا أفقد ابنتى الوحيدة كما فقدت زوجتى ! إرحمى أباك الشيخ المحطم الذى لم يعد له أمل فى الحياة غيرك ... أنت شمسه المشرقة فلا تحرميه من دفئها إلى الأبد ... إن ثلج المشيب يطفئ روحى قليلاً قليلاً ... وكلما رأيتك يا سهام ارتد إلىَّ شبابى ، وانهزمت آلامى ، وتفرجت كروبى ... فلولاك للحقت بأمك ، ولولاك لأغطش ظلام المنون حياتى ... سهام ! انظرى إلىَّ ! أرهفى أذنيك ! تحملى الصدمة معى ... نادر فى الطور الأخير من المرض ... »

— « بابا ... »

— « سو ... ! سهام ! هى صدمة كبيرة لا شك ، وأشد منها أننى أرجوك ... أرجوك يا ابنتى ... أرجوك ... يا ... سهام ! »

وساد بين الرجل وابنته صمت عميق ، تخللته دموع أسْوَانة ... ثم وصل الأب حديثه قائلا :

— « أرجوك يا ابنتى أن تقطعى علائقك بنادر ... دعى ما فى القلب للقلب ، ولكن لا تذهبى إليه ... لا تزوريه فى المصحة ... لقد أنذرنى الدكتور مرتين ، وقد فصل الممرضة المسكينة التى كانت ترحم دموعك وترثى لحبك فتوصلك اليه فى ظلام الليل خلسة ! العدوى يا سهام ! أنت غالية عندى جدا ، وعزيزة علىَّ جدا ، وإذا فقدتك فقدت كل شىء ... سهام ! سهام ! تكلمى يا ابنتى ! ردى علىَّ ! ماذا ؟ تبكين ! ؟ أنت طفلة ... لا ، لا ... ألم يخلق الله غير نادر ... »

— « بلى ... بلى يا أبى ! لم يخلق الله غير نادر لى ... لى أنا على الأقل ! ولذلك ... لا أعدك ! لا يمكن أن أعدك يا بابا ... و ... أنا متعبة جدا ... أريد أن أنام ... عن إذنك »

* * *

مسكينة سهام ! لقد جاءت نصيحة والدها متأخرة جدا ! لقد كانت تنتظر حتى تنام أعين الرقباء ، وتغفى جفون الليل ، ثم تنسل فى جنح الظلام إلى المصحة ، غير حافلة ببرد الشتاء ، ولا قر الصحراء ؛ وهناك كانت ترشو البواب الفقير ، وتجزل له العطاء ، ثم تعرج إلى الطابق العلوى ، فاذا لقيها بعض الخدم حفوا بها واحتفوا ، فتنفح هذا قرشاً وذاك قرشين ، حتى تلقى الممرضة الصغيرة الجميلة التى كانت تعرف سر قلبها وعلالة نفسها ، فتنسى هذه كل قوانين المصحة فى سبيل قوانين الحب ، وتمضى بين يديها إلى غرفة نادر ... المسلول المدنف البائس ... فتقف لحظة خاطفة ، وتستأذن ... لتخلى الطريق المكهرب بين القلبين الحبيبين

وكان نادر يقدر لسهام تجشمها الصعاب من أجله ، وكان يلقاها دائماً بابتسامة عذبة محزونة ، وعينين سادرتين مغرورقتين ، وروح تكاد تثب لتلقاها بذراعين من سرور !

يا لله ... وياللحب ! !

لم يكن نادر يجهل خباثة مرضه ، ولم يكن يجهل أن عدواه شديدة الفتك ، وكانت سهام كنزه الروحى الذى يضمن له السعادة والأحلام ، ولذلك كان يحرسها دائماً بابعاد فمه عن ناحيتها ، وكان يزوى وجهه عنها أو يدسه فى منديل كلما كلمها . وكانت هى لا تبالى أن تدنو منه لتدلل له على أنه حياتها ، وأنها لا تبالى أن تصاب بمثل ما يشكو منه ، وذلك من عمى الحب وجهله ؛ بيد أنه كان يرجوها فى حرارة أن تبتعد ، فاذا لم تُصِخْ ، دس

رأسه بين الوسادتين ، وراح ينتحب . فتشفق عليه وتبتعد

وفُصلت الممرضة التي كانت تُسهل لها زيارة نادر لفتنة شبت بين الخدم من أجل قروش سهام . . . والحق أن الرحمة بالمحبين في هذه الأماكن الخطيرة حماقة من الرجاء المشفقين !

على أن سهاما لم تنىَ بزيارة نادر ، بل استطاعت بقروشها أيضاً أن تنفذ إليه مرات ومرات !

ولم تكن سهام تجهل أن فتاها في الطور الأخير من مرضه ، ولم تكن في حاجة لأن يخبرها أبوها بذلك ، ولكن تلقّي الأخبار السيئة يكون جديداً كلما امتلأت به الأذن مرة بعد أخرى ، وضاعف وقع الخبر في نفس سهام أن الدكتور أكّده . فلما ذهبت إلى مخدعها لتنام طفقت تتقلب في أشواك من الهموم ، وفوق إبر من الأفكار السوداء التي تشبه الخفافيش

وذهب أبوها إلى مخدعه كذلك ، ولكنه ما كاد يستقر فيه حتى سمع ابنته تسعل . . . ثم تسعل . . . وهنا هاجت خلية من اليعاسيب في رأسه ، فنهض من فوره وتوجه إلى غرفتها ؛ ولكنه وقف عند الباب يَتسمّع ويتسمّع ...

« آه يا نادر ... يا حبيبي يا نادر . . . كيف أعيش بعدك يانادر ؟ . . . »

وكان الصوت ضعيفاً عميقاً يتشقق عن صدر ممزق ونفس محروبة ؟

ودخل الوالد الذاهل عن نفسه فجلس بجانب ابنته على سريرها ومر بأصابعه على رأسها فأحس كأنه يحترق

وكانت سهام ما تنفك تسعل ... وتسعل

ونهض أبوها فتكلم مع أحد أصدقائه الأطباء في (التليفون) فجاء على عجل ... وزار سهاما ... وبكل أسف كان هو نفس الدكتور الذي تسبب في فصل الممرضة من المصحة

وداعبها الطبيب بكلمات حلوة منمقة معسولة ، وخرج ولم يكلم أباها .. ولكنها سمعته يقول وهو يطوى الدرج «أنا قلت ، أنا قلت ... » فكانت حماقة أدهى من حماقة الممرضة !

وتبسمت سهام تبسما حزيناً ، وجعلت تتمتم « نادر ؟ سويا يا نادر !! »

ولما أحضرت قوارير الدواء وزجاجاته حدجتها الفتاة بنظرات الاشمئزاز ولم تذق منها جرعة !

***

واشتدت وطأة المرض على سهام ، ولم تكن هناك وسيلة خير من انتقالها إلى المصحة ، المصحة نفسها .... ولم تشمر بغضاضة وهي تلم شعثها لتنتقل اليها ، بل كانت تحس كأنها ذاهبة إلى الجنة لتلقى ثمة حبيبها الذي خيل لها كأنه دخلها منذ بعيد ..

ومن العجيب أن صحتها تقدمت تقدما محسوساً في الأيام الأولى ، لأن شعور الفرح والرضى لمجاورة نادر كان يغمر قلبها ويفعمه بالمسرة

وجاءت ساعة الهول والفزع الأكبر

أقضت سهام ليلة مقرورة ممتلئة بالوساوس ؛ ولم تكن عينها تغفل قليلا إلا لتصحو فزعة من أحلام سوداء تتعلق بنادر . . . فلقد رأته مسجى فوق سريره ، وقد تناثر الورد من حوله ، ولف في ثوب حريري أبيض كبير هفهاف ، ووقف عند رأسه عصفوران أبيضان يغردان تغريداً مشجياً حزيناً .. ثم ما هي إلا لحظة حتى أغمض النائم عينيه ... وطار العصفوران إلى السماء ... !

وهبت سهام مذعورة . . . وآلت أن تذهب إلى نادر ، وعبثا حاولت الممرضة الطيبة الموكلة بها أن تطمئنها ... وعبثا حاول الخدم معاونة الممرضة في تسكين روح سهام ... التي راحت تصرخ بملء صوتها الضعيف المحشرج . . . وهبت تناضل الجميع لتمضي إلى حيث فتاها المريض

وجاء الطبيب ... وفشلت كل مساعيه في إقناعها بالنوم والراحة ... وأخيراً سمح لها

كانت تمشي ضعيفة موهونة متثاقلة ، وطوت الدرج في مشقة ... وكانت تسعل سعالاً مؤلماً . ولما دنت من غرفة حبيبها المسكين وقفت تسترق السمع

« آه .... آه » ثم سعال يعقبه سعال « « سهام ! يا سهام ! أنائمة أنت ! شفاك الله يا حبيبتي ! ألا أراك ! وداعاً إذن ! »

وكان الصوت خشناً كأنه يخرج من بين شقي رحا !

— « نادر ! مالك يا نادر ! »

— « سهام ! »

— « أجل ! أنا سهام ، مالك ! أمتعب أنت ؟ »

— « لا ، ولكني أعتب عليك ، أ ... أتنزلين ... آه »

— « مالك يا نادر ؟ »

— « إذهبي إلى غرفتك فاستريحي ... الدنيا برد ... ارحمي نفسك ... أنا شاكر لك ... آه ... »

— « بل أجلس معك يا نادر ... مالك ! »

— « لا شيء لا تنزعجي ؟ »

وكان الطبيب الرحيم البار ينظر إليهما ويبكي ؟

— « خبرني يا حبيبي ... أتشكو شيئاً ! »

— «اطمئني ياسهام ... يجب أن تعيشي لوالدك ولشبابك»

— « أنت تزعجني ! »

— « لا تنزعجي أبداً ! ... فأنا ... »

وضعف الصوت قليلاً ... ثم قليلا

— « مالك ... مالك ... يا دكتور ، تعال ... إكشف عليه ! »

— « لا فائدة يا سهام ! يجب أن تعيشي ! سهام ! »

— « نعم يا حبيبي ! »

— « ألا ... آه ... كم أستحي أن أقول لك ؟ »

« — بل قل ... قل يا نادر ! »

— « كنت أحلم أن أفوز منك بقبلة تنير لي طريقي إلى الدار الآخرة ! »

ودنت منه ، وقبل أن تهوى على فمه تقبله ، انقض الدكتور فحال بينهما ! ؟ !

يا للسخف !

ولان قلب الدكتور فوضع منديله على وجه نادر ، وأشار إلى الفتاة ، فدنت منه ... وطبعت عليه قبلة باكية ... ولكنها أحست بشفتيه الباردتين المثلوجتين ... وبحركة خاطفة رفعت المنديل وحدقت في وجه الفتى ... ولكن ... وا أسفاه ... لقد فارق الحياة

وتوجهت سهام إلى الله بنفس حزينة راضية ... وغادرت المصحة بعد أيام ، ولكن لا إلى قصر أبيها وحدائقه ... ولا إلى أحلامها وأمانيها !

دريني خشبة

البريد الأدبي

رد وبيان — حول أغلاط مزعومة

نشرت (الرسالة) فى عددها الصادر فى ٣١ أغسطس (العدد رقم ١٦٥) مقالاً بعثت به اليها أثناء غيبتى فى أوربا عنوانه «أسبوع فى سبتمانيا : من ذكريات العرب والاسلام فى غاليس» ، عرضت فيه بعض حقائق وملاحظات أثارتها فى نفسى زيارتى لسبتمانيا وقواعدها فى أواخر شهر يوليه الماضى

وقد لُفت نظرى عقب عودتى بأيام قلائل إلى كلمة نشرتها إحدى الصحف السورية لكاتب يزعم أنه اكتشف فى مقالى أغلاطا شنيعة فى التاريخ والجغرافيا ، وينتهز الفرصة فيوجه إلىّ وإلى (الرسالة) وصاحبها فيضاً من الغمز البذىء الذى ينم فى كل كلمة منه عن حقد مضطرم وسوء نية يعلم الله وحده مصدرهما والباعث عليهما

وأنا أربأ بقلمى و (بالرسالة) عن التورط فى هذا المعترك الوضيع ، معترك السباب والقذف ، وأكتفى بالرد على ما جاء فى الكلمة خاصا بالأغلاط المزعومة

نقل الكاتب عبارتين من مقالى هما موضوع المناقشة ، وهذه أولهما :

« ولقد كانت سبتمانيا — وهو اسمها القديم ، ومعناه ذات المدن السبعة — أو لانجدوك الحديثة ، أول أرض فرنجية غزاها العرب عقب افتتاح الأندلس ، واتخذوها قاعدة لغزواتهم فى جنوب فرنسا ، وجعلوها ولاية أندلسية سميت بالثغر أو الرباط لوقوعها على ساحل البحر الأحمر ... »

وأظن أنه لا يخفى على فطنة أى قارئ أن كلمة « الأحمر » هنا إنما هى خطأ مطبعى أو سهو قلمى لاشك فيه ، جاءت مكان « البحر الأبيض » ؛ ولا يمكن بداهة — والمقال كله على سبتمانيا وجنوب فرنسا والأندلس — أن يخطر ببال قارئ أن كاتب هذا المقال يقع فى مثل هذا الخطأ الساذج . وإذن فالجهل المقرون بسوء النية هو وحده الذى يملى على الكاتب ملاحظته الخرقاء ، وقوله إنى أجهل الجغرافيا ، وأنتقل بالقارئ من شواطئ البحر الأبيض إلى شواطئ البحر الأحمر

وكيف يتصور إنسان سوى هذا الحاقد المصدور أن الخطأ هنا حقيقى وقد كتبتُ مسودة المقال وأنا أتجول فى سبتمانيا ذاتها وعلى شواطئ البحر الأبيض نفسه ؟

ومن الأسف أنه قد تسربت إلى المقال بعض أغلاط وتحريفات مطبعية أخرى ، خصوصاً وأنى لم أتول تصحيحه بنفسى كما هى عادتى نظراً لتغيبى فى أوربا ، وكان ثمة تحريف آخر هول فى شأنه الكاتب تهويلاً سخيفاً ؛ فقد نقل العبارة الآتية التى وردت أثناء حديثى عن موقعة رونشفال :

«ولرونشفال ذكرى خالدة فى التاريخ والقصص الفرنسيين ، فقد كانت مسرحا للموقعة الشهيرة التى مزق فيها العرب جيش كارل الأكبر (شارلمان) ، حين عوده من غزوته لاسبانيا الشمالية ، التى نظم فيها رولان وصيف شارلمان أنشودته الشهيرة « Chanson de Roland »

والكاتب يظن أنه يقول جديداً حين ينقل الينا من «لاروس» أن رولان ليس هو ناظم الأنشودة ، وأن ناظمها لم يعرف

ونعود فنقول هنا إن سوء النية الذى يملى على الكاتب كل عباراته أعماه عن أن يرى فى العبارة كلها ثغرة ونقصاً يقطعان بأن هناك تحريفاً ؛ فقد سقطت فى الواقع منها كلمات غيرت كل مبناها ومعناها ؛ وقد كان النص ، على ما أذكر : « وفى تلك الموقعة ، وفى أبطالها الفرنج ولا سيما هرودلاند أو رولان وصيف شارلمان نظمت الأنشودة الشهيرة » أو ما فى معناه

ومع ذلك فالحديث عن موقعة رونشفال ومصرع رولان وأنشودته يكوّن فصلا من كتابنا « تاريخ العرب والموريسكيين فى أسبانيا » ؛ وقد نشر هذا الفصل فعلا فى مجلة (الهلال) الغراء فى عددها الصادر فى أول فبراير سنة ١٩٣٤ (ص ٤٥٣ وما بعدها) ؛ وهذا ما ورد فيه خاصا بهذه النقطة :

« وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الموقعة فى ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١) ؛ وبينما تقنع الرواية العربية بالاشارة اليها فى عبارات موجزة إذا بالرواية الفرنجية والكنسية تفيض فى تفاصيلها افاضة ظاهرة . وأوثق وأدق الروايات الفرنجية عنها هى رواية اينهارت مؤرخ شارلمان ومعاصره ، فهو يفصل حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم اجهارد رئيس الخاصة ، وانسلم محافظ القصر ، وهرودلاند حاكم القصر البريتانى . وهرودلاند هو رولان بطل الأنشودة الشهيرة التى نظمت عن هذه الموقعة ، والتى ما زالت أثراً خالداً لقريض الفروسية فى العصور الوسطى ؛ ذلك أن الأسطورة اتخذت من حوادث هذه الموقعة موضوعا لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أيما تحريف ، ولكنها تستبق مكان الموقعة وبعض أشخاص التاريخ

« وهى نورمانية الأصل ظهرت لأول مرة فى القرن الحادى عشر أعنى بعد الموقعة بثلاثة قرون ، ودونت أولاً فى بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم فى قصيدة طويلة بعنوان « أنشودة رولان »

هذا ما كتبناه ونشرناه منذ أعوام عن أنشودة رولان ؛ نذكره هنا ليعرف الكاتب أننا لسنا فى حاجة إلى تصحيحاته المستقاة من معجم الأحداث

أما كون رولان كان وصيفاً لشارلمان أم لا ، فهذه نقطة لا أهمية لها ، وقد كان رولان أو هرودلاند أحد البارونات الاقطاعيين ؛ وكان من الشرف الملوكى يومئذ أن يلتحق البارونات بمناصب الوصفاء فى البلاط ، وكان هرودلاند من هؤلاء

وبعد ، فهذا ما يزعم الكاتب أنه أخطاء شنيعة اكتشفها فى مقالنا ، وهذا ما يريد أن يتخذه تكأة للتعريض بنا وبالكتاب المصريين والأدب المصرى

وهذه نغمة نعرفها ؛ وقد نعرف الباعث عليها

بيد أن الكاتب يوهم إذ يحسب أنه يستطيع أن ينال منا بمثل هذا الاسفاف

أما إشارته إلى كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » فنكتفى بأن نرد عليه بأن المراجع التى ذيلنا بها كل فصل من فصوله تكفى لأن تخرس ألسنة السفهاء والمتحاملين ؟

محمد عبد الله عنان

الجاحظ فى كتاب (تراث الاسلام)

نشرت (الرسالة) القراء منذ عددين استهلال فصل الفلسفة والالهيات فى كتاب (تراث الاسلام) وورد فيه كلام للجاحظ يتضمن الاعتراف بفضل الفكر اليونانى على أهل الملة الاسلامية ؛ ثم نشرت فى العدد الماضى مقالاً للأديب الكريم محمد طه الحاجرى أثبت فيه نص الجاحظ وذكر الكتاب الذى ورد فيه هذا النص

والذين سيطلعون على فصل الفلسفة والالهيات فى هذا الكتاب سيعرفون من تعليقاتى الجهد الشاق الذى تحملته فى البحث عن النصوص التى وردت فيه ، ولا سيما أن المؤلف كان فى أكثر هذه النصوص لا يشير الى المراجع التى استقاها منها

والقراء يعرفون أن الجاحظ قد ألف العديد من الكتب والرسائل وأنه كان يتناول فى الكتاب الواحد موضوعات شتى واتجاهات متباينة قد لا يربطها عنوان الكتاب . فمعرفة نص له فى كتاب مجهول الاسم أمر عسير كل العسر . ومع ذلك فقد حاولت جهد الطاقة أن أعرف الكتاب الذى ورد فيه هذا النص فلم أوفق ؛ فاتصلت بالأستاذ جيوم مؤلف الفصل — فى انجلترا — لعله يهدينى الى الكتاب الذى ورد فيه النص ، فرد معتذراً بنسيان المصدر ... ولما كنت أعلم أن لهذا النص خطره من حيث إنه يحمل اعترافاً له قيمته العلمية فقد تعمدت أن أثبت فى ذيل الصفحة التى ورد فيها كلام الجاحظ تعليقاً أوردت فيه نصوصاً لعلماء المسلمين وفلاسفتهم (كالشهرستانى ، وابن خلدون ، وابن سبعين) وكلها تؤيد هذه النظرة التى ذهب إليها الجاحظ

ويستنكر الأديب الكريم من المؤلف استشهاده بهذا النص على أن الفلسفة العربية ليست إلا صورة من الفلسفة اليونانية مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية . وهذه ملحوظة لم أهمل الالتفات إليها والرد عليها فى تعليق آخر قد نشرته الرسالة مع المقال وذكرت فيه آراء بعض مؤرخى الفلسفة الاسلامية من علماء الغرب وانتهيت الى تقرير الرأى القائل بأن للفلسفة الاسلامية كياناً خاصاً يميزها من غيرها من سائر الفلسفات لأن فيها ثمرات من عبقرية أهلها

على أن هذا الرأى لا ينفى القول بأن الجاحظ وغير الجاحظ من علماء المسلمين وفلاسفتهم قد اعترفوا بما كان لليونان من فضل

على أهل الملة الاسلامية ؛ بل أسرف أكثرهم فمزا إليهم الفلسفة الاسلامية فى شتى آفاقها

وإنى لأشكر للأديب الكريم اهتمامه بالأمر ومسارعته بالرد ؛ فلو تأخر رده أسبوعاً واحداً لكان الكتاب فى أيدى قرائه . وتعذر علينا تبليغ النص إليهم ؟!

توفيق الطويل
عضو لجنة الجامعيين لنشر العلم

هل للشاعرة ما للشاعر من الحرية فى التعبير الشعرى ؟

حول رسالة آنسة

قلت فى إحدى مقالات « شعراء الموسم فى الميزان » أثناء نقد قصيدة السيدة منيرة توفيق : « والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبى الهول ، ولا أعنى إلا الامساك عن التعبير عن الاحساس والعواطف تعبيراً صادقاً ؛ فمن شعرت من بنات مصر فانما تقول فى الأخلاق والنصائح ، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس ، لأن طبعها الصموت الحيى يأبى الحديث عنها ، وأعتقد أنها لو فعلت ، وكانت موهوبة التعبير والأداء لأتت بالغرائب »

ومنذ أيام وردت إلى هذه الرسالة فى بريد « الرسالة » ، وهى بعد الديباجة :

« طالعتنى الرسالة فى عددها — ١٦٢ — بكلمتكم الغراء عن المرأة المصرية وتنحيها عن التعبير الشعرى فى ميادين الأدب باحساس النفس وخوالجها

أقول الشعر بالسليقة ثم أخذته دراسة ليلى الفطرى ، ولدى الكثير فى الغزل والوصف والرثاء والحماسة إلى غيره من أبواب الشعر ولكنى لا أجرؤ على نشره ؛ وقد دفعتنى كلمتكم إلى إرفاق مقطوعات من بعض ما لدى دفاعاً عن المرأة المصرية . فان استشعر أستاذى فيها خيراً أقبلت على النشر وواليت الانتاج

أنتظر رأيكم على صفحات « الرسالة » وكم فى « الكنانة » من مثيلاتى ؛ وتنازل بقبول أسمى تحياتى

ف . ع . ح آنسة

فهذه الآنسة ، وإن كانت تعبر عن إحساسها لا تجرؤ على نشر ما تقول ، كما تقول ، وتدفع عن المرأة المصرية تهمة القصور باطلاعنا على قطع من شعرها أكثرها فى الغزل ... ونسوق إلى القارىء منه شيئاً :

تقول فى أبيات عنوانها (سهام) :

كان الفؤاد يقول لو ذقت الهوى
ونعمت حيناً مثل من ناجى اللوى
ظن الغرام سعادة لم يدر ما ... يخفيه من ليل المحب وما طوى
ذكر اللقاء وما به من لذة ... لكنه جهل الصبابة والنوى
فنصحت مهلاً يا فؤادى واتئد ... ليس الغرام كما ظننت بما احتوى
لكنه ما ريعوى عن غيه ... ومضى به شوق الغرام إلى الهوى
والآن من سهم اللحاظ معذب ... قد ذاب من وله يود لو ارعوى

وهذه جرأة نجرؤ على أن نقول إن فيها كسباً جديداً للأدب ، فاذا كان الشعر يستمد أكثر ما يستمد من العاطفة ، فالمرأة هى العاطفة ، وهى تلهم الرجل الشعر ، فاذ تشعر هى فانما تنفق عن سعة وتتدفق من معين

والحق أن المرأة إنما تحجم عن هذا الميدان لأنها تخشى إنكار الرجل عليها ، فهى لا تقول الشعر المعبر عن حقائق نفسها لأنها ترى أنها ستقوله لنفسها ، فتؤثر الصمت ؛ ولعل رسائل الحب الخاصة أفسح مجال لها ، فهى تحسن فيها وتبدع ، فلو أتيح لها أن تظهر فى حلبة الشعر مطلقة الحرية فى التعبير لبذت وفاقت

وبعد ، فألى الانسة « ف . ع . ح » يساق الحديث :

أشكرك على خطابك الرقيق ، وأحيي فيك هبة الشعر التى تبدو فيما بعثت به ، وإن كان يعوزه الشىء الكثير من سلامة الأسلوب ومتانة النسج وصحة المعانى ، وترتيب الأفكار . ولعل ما قرأته فى نقدنا للشعراء يهون عليك وقع هذا الكلام ، فقد عاهدنا الحق أن نسلك سبيله لا نحيد عنه . وإن كان هذا بدء معالجتك لقرض الشعر فهو يبشر بالاجادة ؛ فأحب لك الآن أن تقبلى على المطالعة والدراسة أكثر مما تقبلين على الانتاج والنشر

عباس حسان خضر

عيد جوسلين وذكرى لامارتين

فى أوائل شهر سبتمبر أقيم فى مدينة ماكون بفرنسا عيد أدبى مؤثر ؛ وماكون هى مسقط رأس الفونس دى لامارتين ومرتع طفولته وحداثته ؛ ولكن العيد الأدبى الذى أقيم بها لم يكن خاصاً بشخص لامرتين ، بل باحدى منظوماته الشعرية الشهيرة ، ونعنى « جوسلين » Jocelyn التى مضى على صدورها مائة عام

احتفل إذن بالعيد المئوى « لچوسلين » فى ما كون ، وأثيرت ذكرى الشاعر الكبير ، ورأس هذه الحفلات المؤثرة مسيو هنرى بوردو عضو الأكاديمية الفرنسية ، وكان من ضمنها حج أصدقاء الشاعر الى ضيعته «ميلى» التى قضى فيها أعذب أعوامه وشاد بذكرها فى «مذكراته» والى قصر سان بوان حيث قضى أعوام مجده ، ثم إلى قصر مونصو حيث قضى أعوامه الأخيرة فى غمر من البؤس والنسيان

أما منظومته «چوسلين» التى عرفت أيام صدورها منذ مائة عام أعظم ظفر أدبى يمكن تصوره فتكاد تنسى اليوم الى جانب منظومات وروايات أخرى للامارتين ؛ ذلك أنها لم تكن خير ما نظم من حيث الصناعة والصقل ، ولكنها كانت من أبدع ما نظم من حيث الروح ، والقوة ، والطابع الغنائى

وچوسلين قصة شعرية كبيرة فى أكثر من ثمانية آلاف بيت ، وكانت حسبما يريد ناظمها أول قسم من ديوان شعرى ضخم يسمى «الرؤى» Visions ؛ وبطلها چوسلين وهو فتى يتيم وولد قروية فقيرة ، حملته ظروف الأسرة على الالتحاق بمدرسة الكهنة على رغم إرادته ؛ وكان ذلك أيام الثورة ، فلم يلبث أن طرد من المعهد قبل إتمام دروسه ؛ وعندئذ فر الى الجبال ليتقى المطاردة التى كان يعرض إليها رجال الدين يومئذ ، وعاش فى كهف فى الجبال ، وعطف عليه راع كان يمده خفية بالطعام والشراب

وفى ذات يوم رأى چوسلين شيخاً وفتى يطاردهما القتلة فتقدم لعونهما ، وأسلمه الشيخ فتاه ، ولكن لم ينج من رصاص القتلة نخر قتيلاً ، بينما التجأ ولده ناجياً الى كهف چوسلين

وعاش چوسلين مع هذا الفتى الحدث فى وئام وحب أخوى ؛ ولكن حدث ذات يوم أثناء هبوب العاصفة أن جرح الفتى ، ولاحظ چوسلين دهشاً مرتاعاً ، أثناء العناية به ، أنه يعنى بفتاة لا بفتى ، فعندئذ هام چوسلين بالفتاة « لورانس » ، وأخذ يحلم بالاقتران بها

ولكن الدهر لم يلبث أن فرق بينهما . ذلك أن چوسلين دعاه أسقفه ومربيه وهو على أهبة الموت ليقوم له بالواجبات الأخيرة ، ولم ير چوسلين بداً من قبول التضحية ، فهرول الى الأسقف ، وقام بواجبه . وفى أثناء ذلك تركت لورانس العنان لأهوائها وغدت فتاة خاطئة ، ودارت الأيام دورتها ، فالتقى چوسلين ثانية بلورانس يطلب إليها الصفح ويحمل اليها الغفران

تلك هى خلاصة « چوسلين » والمعروف أنها صورة لقصة واقعة بطلها راهب من أصدقاء الشاعر يدعى الأب « دومون » ، كان من رجال الدين أيام الثورة ، فعهد إليه ذات يوم أحد أصدقائه الأشراف بصغرى بناته لكى ينقذها من خطر السجن والاعدام فهام كل منهما بالآخر ، وأثمر الحب ابنة سميت الآنسة ميلى ؛ وعاش القس محترماً مبجلاً يزاول مهنته بعطف ورقة حتى توفى ؛ ونظم لامارتين فيه قصيدة مؤثرة ؛ وما زال قبره فى تلك الأنحاء يعرف بقبر « چوسلين » بطل منظومة لامارتين

من أرض البكم

صدر أخيراً بالألمانية كتاب عنوانه « من أرض البكم » Aus dem Lande der Stummen بقلم الكسندرا آنسروڤا :

وأرض البكم هى سجون روسيا السوڤيتية ومعاقلها التى خصصت لنفى الأحياء واخراس الألسن ؛ والكسندرا آنسروڤا هى نبيلة من نبيلات روسيا القيصرية ، كانت أيام الثورة فتاة فى السادسة عشرة ، فقبض عليها البلاشفة وزجوها إلى السجن بين من زج من النبلاء والنبيلات ؛ وما زالت الكسندرا تتقلب من سجن إلى سجن ومن منفى إلى منفى بلا تهمة ولا ذنب معين إلا أنها من النبيلات ، وتعانى أروع الآلام المادية والمعنوية ، تارة فى جزر البحر الأبيض الشمالى ، وتارة فى سيبيريا حتى سنة ١٩٣٢ ؛ وعندئذ أفرج عنها بعد اعتقال دام نحو خمسة عشر عاماً ، وبعد أن ظهرت براءتها ناصعة ؛ فلبثت فى موسكو مدى عامين تدون مذكراتها عن « أرض البكم » ثم غادرت بعد ذلك موسكو إلى ألمانيا ، وهنالك نشرت كتابها المذكور

والكتاب يصف السجون والمعاقل الروسية فى عهد البلاشفة وصفاً دقيقاً مروعاً ، ومنه يتبين أنها ليست فى العهد الحالى أقل شناعة وروعة منها أيام القياصرة ؛ وفى الكتاب ملاحظات وحقائق غريبة عن الحياة الجديدة فى روسيا البلشفية

الثقافة الألمانية فى عصر النازى

نشرت الكاتبة الأمريكية دوروثى تومبسون فى مجلة

« الشؤون الخارجية » Foreign affairs الأمريكية مقالاً عن « الثقافة فى عصر النازى » استعرضت فيه خواص الحركة الأدبية والثقافية فى ألمانيا الحاضرة ، ومما قالته إن العالم الخارجى يدهش اليوم لأن أصوات الكتاب الألمان لا تسمع ، ولأنهم رضوا طائعين أن يكونوا آلة صماء للسياسة والوحى السياسى ، ولكن الحقيقة أن هنالك مبررات قوية لهذا الخضوع المطبق ؛ ذلك أن الحركة الفكرية والثقافة كلها قد وضعت فى ألمانيا الحاضرة تحت نظام حديدى مطلق ، ومن المستحيل اليوم أن يصدر فى ألمانيا كتاب أو نشرة ديموقراطية أو اشتراكية ، أو أدب يصطبغ بالصبغة الدولية مخالفاً للنزعة القومية الداخلية . وقانون الصحافة الجديد قوامه عصبة من الكتاب المتعصبين لنظريات الجنس هم أعضاء جمعية الصحافة القومية ، ولهم وحدهم الحق فى الكتابة تحت الرقابة الحزبية ، ويعاقب من يخرج منهم على قانون الجمعية أو على مبادئها بالحبس سنة ؛ وكل ناشر يشجع كاتبا ليس ملتحقاً بجمعية الصحافة وينشر له شيئاً يعاقب بالحبس والغرامة وكل ما يكتب تفرض عليه رقابة صارمة ؛ وتخضع الحركة الفنية لمثل هذا النظام الحديدى ؛ وترى مس تومبسون أن ما يسود الحركة الثقافية اليوم من تلون ونفاق أساسه الاضطهاد والخوف يجعلها فى نظر العالم المتمدن مأساة مروعة تفوق تلك المأساة التى يعرضها الكتاب المنفيون أنفسهم ؛ فبين أولئك المنفيين اليوم أعظم كتاب ألمانيا المعاصرة مثل توماس مان ، وأخيه هينريش ، وأرنولد زفايج ، وأريك ريمارك ، وطائفة أخرى من أقطاب الكتاب اليهود

والأدب الألمانى يصدر اليوم فى ظل النازى بكثرة ، ولكنه أدب محتضر تنقصه روح الابتكار ، وينتظر زعماء النازى عبثاً ظهور العبقريات الأدبية الممتازة . ذلك أن حرية الفكر هى روح كل أدب وفن ؛ وما دام التفكير مصفداً والآراء مملاة ، فسوف يكون ثمة أدب وثمة كتب ومجلات ، ولكن لن يكون ثمة أدب جميل أو رفيع ؛ وسيكون ثمة كتاب ، ولكن كتاب محترفون أرقاء

دائرة معارف للجنس الأسود

سيكون للسود فى القريب العاجل دائرة معارف خاصة تتحدث عن كل ما يتعلق بهم من الخواص الجنسية والشؤون السياسية والاجتماعية ، والتاريخ والمدنية ؛ وتعد هذه الموسوعة الجديدة الآن فى أمريكا ؛ وقد وضع المشروع منذ سنة ١٩٣٢ ، وانتخب لرآسة اللجنة المشرفة على تنفيذه زعيم السود الدكتور دى بوا أستاذ علم الاجتماع فى جامعة اتلانتا ؛ وتشمل اللجنة ممثلين لجمعية تقدم العلوم الافريقية ، ومجلس الجمعيات العلمية الأمريكية ولجنة التعاون الدولى ؛ وستعنى الموسوعة بالتحدث عن جميع أطوار حياة الجنس الأسود وتاريخه ومدنيته ، سواء فى إفريقية أو أمريكا ؛ وسيكون لهذه الموسوعة الطريفة شأن عظيم فى دوائر الأدب والسياسة والاجتماع ؛ وسيعطى لها اسم (موسوعة الرجل الأسود) Encyclopaedia of the Negro

مذكرات ملوكية

صدرت أخيراً ترجمة انكليزية لمذكرات الأميرة أولاليا الأسبانيه ، وهى ابنة الملكة إيزابيلا وعمة الفونسو ملك أسبانيا السابق ؛ وتشغل هذه المذكرات زهاء سبعين عاماً تنتهى بقيام الجمهورية فى أسبانيا سنة ١٩٣١ ؛ وتتضمن أخباراً وقصصاً ونبذاً كثيرة عن معظم الحوادث التى تمس أسبانيا ، وعن جميع القصور الأوربية التى تتصل الأميرة أولاليا بمعظمها بصلة القرابة ؛ وتبسط الأميرة بنوع خاص الأسباب والعوامل التى أدت إلى سقوط الملكية الاسبانية ، والتى شرحتها غير مرة للأسرة المالكة ، ولم يحفل بنذرها إنسان . كذلك تتضمن المذكرات نبذاً كثيرة عن عظماء هذا العصر الذين اتصلوا بالبلاط الأسبانى

مخطوطات قديمة

الكتب

رسائل الأهالى

على طريق الهند

للأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

رسالة قيمة أخرجتها إلى شباب الشرق جريدة الأهالى التى كانت تصدر فى بغداد وعُطلت وا أسفاه منذ طويل ، وهى بحث علمى قوى رجع كاتبه الفاضل فيه إلى أكثر من تسعين مرجعاً من السجلات والمحفوظات الرسمية والأوراق البرلمانية وتقارير الخبراء العسكريين والدبلوماسيين ونصوص المعاهدات ، وكتب المؤلفين المهتمين بدراسة شؤون الشرق أمثال أندريو وبوشام وتشرشل وكرزون وفوكس ومون وإسكويث والسير وليم ولكوكس والسير ارنولد ولسون وغيرهم

وقد تبدأ هذه الرسالة بمقدمة جغرافية عن أهمية الخليج الفارسى وسواحله العربية والفارسية والشمالية ، ثم يجاوز الكاتب هذا إلى كلام فى تاريخ الخليج ، ثم يثبت أن المصالح المادية وتجارة أوروبا مع الشرق كانت سابقة للأطماع السياسية ، وينتهى إلى أن الانجليز إنما سيطروا على الخليج الفارسى فى سبيل الهند موضحاً أهمية الهند للرأسمالية الانجليزية وكاشفاً فى قوة وجرءة عن سياسة هذه الرأسمالية واستخدامها الهنود لمصلحة الاستعمار وارتكابها الأخطاء الوحشية فى سبيل تحقيق ذلك كله . ويرى الكاتب الفاضل أن وادى الفرات أقرب الطرق إلى الهند ؛ ويشرح موقف انجلترا إزاء المسألة الشرقية ، واهتمامها بطريق السويس والفرات ؛ ويبين ما نشأ من نزاع بين الرأسمالية الدولية من أجل سكة حديد بغداد حتى قيام الحرب العالمية

ويرى كاتب الرسالة فوق ما تقدم أن الثورة الصناعية جعلت الانجليز فى حاجة إلى كثير من المواد الفغل ، وقد يكون اهتمامهم بالعراق لأنها طريق الهند أولاً ولأنها أيضاً حقل يستطيعون أن يحصلوا منه على القطن والحبوب ، وتفسير ذلك اهتمام الانجليز بمشروعات الرى العراقية التى أسفرت عن فشل مروّع . ثم يشير إلى مرحلة أخرى كشف فيها النفط ودعى الجنرال فيشر إلى الاستعاضة به عن الفحم وما بذلته انجلترا فى سبيل تأسيس الشركات وعقد الصفقات والمقاولات حتى سنة ١٩٣١

وينتقل إلى أن الحالة السياسية كان لها أثرها فى علاقات الانجليز بالشرق ، فقد قامت النهضة التركية وسيقت تركيا لاعلان الحرب وتقاسم الاستعماريون أملاكها ، ثم كان أخيراً انتصار مصطفى كمال والقضاء على الأطماع البريطانية فى تركيا ذاتها

كذلك ظهر السيد جمال الدين الأفغانى ونشر آراءه الحرة فى إيران فقامت حركات دستورية واضطرابات عنيفة سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٨ . ثم قامت الحركة الوطنية بعد ١٩١٧ فخذلت الاستعمار البريطانى ونصّبت رضا شاه بهلوى ملكاً على إيران الجديدة

كذلك قاتل الأفغان ضد الاستعمار تحت راية أمان الله حتى الحرب العامة التى أعلن أمان الله بعدها الاستقلال وأسس العلاقات السياسية مع روسيا . ثم جاوز هذا إلى حرب الانجليز وعقد معهم صلح (راوال بندى) ، وسار فى سبيل الاصلاح الداخلى والنهوض بالأفغان حتى قامت عليه الثورة المدبرة التى أنزلته عن عرشه وأجلست مكانه نادر شاه

وتشير الرسالة إلى بوادر اليقظة فى الهند بعد فظائع الاستعمار البريطانى مما أدى إلى عقد المؤتمر الوطنى الهندى ونجاحه فى الدعوة إلى الثورة فى وجه الانجليز حتى سنة ١٩١٢ ، ثم اقتربت الحرب العظمى فاستمالت انجلترا الهنود لتضمهم إلى صفوفها . وبعد انتهاء الحرب عمد الانجليز إلى إصلاحات سنة ١٩١٩ ثم قامت الحركة الوطنية بزعامة غاندى فحكم عليه وانقسمت الجبهة الوطنية ودارت مفاوضات مؤتمر الطاولة المستديرة وانتهى الأمر بتخاذل غاندى وانصرافه عن قضية الوطن الهندى إلى قضية المنبوذين

كذلك مصر قامت فيها حركة وطنية بدأها محمد على الكبير ورعاها اسماعيل والطبقة الارستقراطية ؛ وهنا يناقش الكاتب

الوضع الاقتصادى للبلاد ، ويتتبع أدوار الوطنيـة التقليدية على يد عرابى ومصطفى كامل وسـعد زغلول ، ويبين كيف أن اتحاد الجهات العليا مع الانجليز وتآمر الأرستقراطيين مع السياسـة الاستعمارية جعل الوطنية التقليدية على وشك الزوال . ذلك ختام الفصل الذى تعرضت فيه الرسالة لمصر . على أن ما شهده العالم من تضحيات الشباب المصرى ، وتـكوين الجبهة الوطنية ممثلة بجميع الأحزاب ، وعقد معاهدة ١٩٣٦ ، لا شك يجعل الوطنية التقليدية التى أشار اليها الـكاتب الفاضل تدخل فى دور جديد يُقضى فيه على مساومة المستعمرين وخذلان قضية الوطن برعاية مصالح الطبقة الخاصة

ثم يناقش الـكاتب الفاضل بعد هذا تعاون روسيا السوفيتية مع الشرقين الأوسط والأدنى ، وإلغاء الامتيازات ، وعقد المعاهدات مع تركيا وإيران وأفغانستان ، وتـكوين الجبهة الشرقية ضد الاستعمار ، وما كان فوق ذلك من أثر النظام السوفيتى فى حكومة تركيا الجمهورية مستدلاً بمشروع السنوات الخمس التركى

ويبحث الفصل الأخير من فصول هذه الرسالة القيمة فى النزاع الاستعمارى فى الشرق الأدنى وكيف أن الانجليز يستعينون بأمراء العرب ضد الوحدة الاسلامية ، وكيف أن سياستهم قد انخـذلت فى الشرق بعد الانقلاب الروسى ، فعمدت انجلترا إلى سياسة جديدة هى مفاوضة فرنسا وعقد المؤتمرات لتوزيع العروش والتيجان ، وبذلك حكمت جبهة الدفاع فى البـلاد العربية واتخـذت العراق مقراً لها . وأخيراً يشير إلى المعاهدة العراقية الانجليزية ويرى أن الخلاص لا يكون إلا بالانتباه إلى مكائد الاسـتعمار للعراقيين ولشعوب الشرق على حد سواء ، وبالاستفادة من موقع العراق الخطير على إنقاذ أنفسهم من ويلات المستعمرين ، وأن يتذكروا دائماً أن خلاصهم من الاسـتعمار منوط بتعاون شـعوب الشرق كافة وزوال الاستعمار من جميع البلاد الشرقية

***

ذلك نموذج سام للـكتابة القومية الشرقية التى لا يختص بها قطر دون آخر من بلاد الشرق ، والتى تريد أن تجعل من الشرق بأسره جبهة قوية فى وجه الاستعمار . والواقع أن الشعوب المغلوبة على أمرها فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الـكتابة الشعبية التى تنير لها سبل الحياة الحرة وتشعرها بما ينصب فوق رأسها من إرهاق وعسف ؛ ذلك هو الأدب الحى الذى يقلب أوضاع الجماعات ويهدم الفاسد من أنظمة الحكم ليقيم محلها أنظمة صالحة تنفذها حكومات صالحة تعمل لصالح المحكومين وتستمد منهم وجودها وقوتها ، والشرق العربى والطورانى ظلاً طويلاً مسخرين لصالح الحاكمين والمستعمرين الذين أذلوا الجماعات ، ووقفوا فى سبيل إظهار مواهب الفرد وقوته ، وحالوا دون أن يعمل لصالح الجماعة التى يعيش فيها . ورسائل الأهالى التى نحن بصددها كتابة شعبية صريحة كتبتها أقلام جريئة قوية لا تخشى فى الحق لومة لائم ووجهتها إلى شباب الشرق تثير فيه الحماسة وتذكى جذوة القومية الشرقية العزيزة وتجلى عن ويلات الاستعمار ومساوئه وتفتح عين الشرق على خير وسائل الخلاص ، وهذه الأقلام المخلصة لا ريب حقيقة بالتعظيم والتقدير ؟

عبد الفتاح السرنجاوى
مدرس التاريخ بمعهد القاهرة